مدرستا أهل القرآن واقرأ لتعليم القرآن الكريم
ولاية سمائل – وادي بني رواحة

مقرر المسابقة الخامسة عشر

تفسير القرآن الكريم
الجـــزء الخامس عشر

من كتاب
الإبريز في تفسير كتاب اللّه العزيز

يمكنكم الحصول على تفاصيل المسابقة وتنزيل نسخة إلكترونية من هذا المحتوى عبر موقع المدرستين على شبكة المعلومات العالمية

/https://areejquran.net

دعـــوة من القلب

لأننا نحبكم في اللّه فإننا نوجه إليكم دعوة من القلب لخدمة دين اللّه تعالى من خلال المشاركة في نظام السهم الوقفي، أو الدعم المباشر للمبنى الوقفي، والبرامج التعليمية للمدرستين وذلك من خلال التواصل عبر الأرقام ٩٩٢٠٦٣١٥ – ٩٨٢١١٢١١ ـ ٩٢٥٠٨٦١٣

سائلين المولى عز وجل أن يجعل إنفاقكم صدقة جارية في ميزان حسناتكم.

تفسير الجزء الخامس عشر

تفسيرُ سورة الإسراء

سورةُ الإسراءِ مكيةٌ في نزولها، إلا قليلا من آياتها مدنية، وعدد آياتها مئة وأحد عشر، عُرِفَت وقتَ الصحابةِ بسورة بني إسرائيل؛ لإيرادها قضايا وشؤونا هامة عن تاريخهم وأحوالهم، وتسمى أيضا بسورة "سبحان" لابتدائها بتنزيه الله تعالى وتعظيمه، اختُلِفَ في وقت نزولها، والأَصَحُّ أنها كانت قبل الهجرة بنحو سنة وخمسة أشهر، أما عن رُتْبَتِهَا في النزول فهي بعد سورة القصص وقبل سورة يونس.

حَوَت السورةُ مواضيعَ قيمة متنوعة، ابتداء من استنطاق الأحداث التاريخية في حادثة الإسراء، وَرَدِّ الاعتبار للمسجد الأقصى لكونه رمزا من رموز الإسلام المقدسة، وعرض الآيات المبهرات الدالة على عظمة الله تعالى، ثم تقديمِ منظُومَةٍ متكامِلَةٍ من الأوامر والنواهي والآداب الإسلامية، إلى إثبات حقيقة البعث الأخروية بأدلة عالم الشهادة، ولم تغفل السورة عن قصة آدم ونزغات الشيطان له وذكر العبر المستخلصة منها، وقد أولت أهمية لعرض بعض أحوال الأمم وطرائق أخذهم، وما لقيه النبي ﷺ في سبيل دعوته من التهديدات والأسئلة المحبطة، وتفنيدها من لدن رب العالمين، وبين هذا وذاك قوانين وعظاتٌ ونُذُرٌ للمؤمنين، تخلصهم من شوائب الفكر، ورذيلة الأخلاق، وتزرع فيهم بذور الصلاح والرشد.

١. إسراء الرسول ﷺ إلى المسجد الأقصى، و إنزال التوراة هدى لبني إسرائيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(١) وَ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣)﴾

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ ابتداء الكلام بالتسبيح إيذان بإيراد خبر عجيب بعده، يحمل في طياته شيئا عظيما ذا قدر ومكانة في النفوس، بحيث يجعل القارئ في اهتمام وتركيز، والتسبيح معناه: "التنزيه وإزالة النقائص عن الله تعالى، و إثبات الكمال الإلهي في ذاته وصفاته و أفعاله"، وهنا بمعنى: نفي منقصة العجز عنه، لورود ما يدل على القدرة الإلهية في حادثة الإسراء المذكورة بعد شأن التسبيح، ولفظةُ "سُبْحَانَ" منصوبة لفعل مضمر متروك إظهاره؛ والتقدير: أسبح الله سبحانا، "أَسْرَى" أي سار بالليل، والهمزة ليست للتعدية، بل هي حاصلة بالباء، وهو مرادفٌ لِسَرَى، والمعنى: جَعَلَ عبده محمدا روحا وجسما مسريا أو ساريا، ولما كان السُّرَى يحمل معنى

التنقل ليلا، فإردافه بِـ"لَيْلاً" بصيغة التنكير، إشارة إلى أن السريان كان في جزء من الليل، ليس كله، وفيه دلالة على عظمة ذلك الليل ورفعة مقامه، والمسافة المقطوعة ليلا بعناية الله وحفظه تبتدئ من المسجد الحرام بمكة، وتنتهي إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس بفلسطين، وسمي بالأقصى لبعده الكبير لمن هو بالحجاز، وبينهما مسيرة ثلاثين يوما إلى أربعين يوما، ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ البركة هي نماء الخير والفضل الكبير، صفةٌ للمسجد الأقصى، والبركة هنا تشمل المادي كخيرات السماء وبركات الأرض، والمعنوي كالمغفرةِ والثوابِ ومضاعفة الأجوروالرَّحَمَاتِ الإلَهِيَةِ، "حَوْلَهُ" تفيد حصول البركة في الأركان المحيطة بالمسجد، فيفهم حصول البركة فيه من باب أولى، ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ المقصد من رحلة النبيّ محمد ﷺ تحت إشراف العناية الربانية، إراءَتُهُ الآياتِ الإلهيةَ، الدالةَ على عظمتِه وعجائبِ قدرته، وأما ماهيةُ الآيات وطبيعتها فلم يرد فيها نص شرعي قطعي، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ يرجع الضمير في "إِنَّهُ" على الأظهر إلى النبي محمد ﷺ، لكونه سامعا وشاهدا لما أرَاه الله من الآيات الباهرات، وفي هذا نفي لمزاعم المشركين، أنه واهم وكاذب، وأما على تقدير كونهما صفتين لله تعالى، فتكون بمعنى المسمع والمبصر، أي القادر على إسماع عبده و إبصاره، ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الجملة ابتدائية، على تقدير: الله أسرى بعبده، و آتى موسى الكتاب. وهذا الانتقالُ في الموضوع لمناسبة ذكر المسجد الأقصى الحاضن لجزء هام من تاريخ بني إسرائيل، والمعنى: آتى الله تعالى موسى عليه السلام كتاب التوراة، وكلفه بالرسالة، وجعل ذلك الكتاب سبب هداية ورشاد لأمة بني إسرائيل، لاحتوائه دلائل الاستقامة والصلاح، في الدنيا والآخرة، ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ "أَنْ" تفسيرية لِمَا تضمنه كتاب التوراة، وقد حُصِرَ التفسير في التوحيد الإلهي، لأهميته البالغة في الرسالة السماوية الموسَوية، أي: آتيناكم يا بني إسرائيل كتاب التوراة الهادي إلى الصراط المستقيم، فلا تتخذوا من دون ربكم وكيلاً، تلتجئون إليه في شؤونكم وحاجاتكم، والوكيلُ: الذي تُفَوَّضُ إليه جميعُ الأمورِ، ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ هذا الآية تحمل مقصودا تعريضيا لبني إسرائيل بأنهم غير عابدين لله، ولا شاكرين لنعمائه، والمعنى: لا تتخذوا من دوني وكيلا؛ لأن نوحا شكرني ولم يكفر نعمتي باتخاذ الشريك، فكونوا مثله، ويجوزُ أن تكونَ هذه الجملةُ من تمام الجملة التي قبلها، أي: لا تتخذوا من دوني وكيلا حال كونكم ذريةً ممن حُمِلَ مع نُوحٍ عليهم السلام، ويجوز أيضا أن تكون "ذُرِّيَّةَ" منصوب على النداء، والمعنى: أنتم يا بني إسرائيل ذرية لأجدادكم الذين حملناهم في سفينة نوح، التي أنجيناها من الغرق بسبب إخلاص إيمانهم وسيرهم على الهدى الإلهي، ولم يكن القول: ذرية نوح و إنما ذرية من حملنا مع نوح، رغم أن القصد متحقق، ليذكّرهم بأصولهم التي أنجاها الله من الغرق، وهذا تعريض بأنهم إن لم يلتزموا هدى التوراة فستكون عاقبتهم وخيمة كعاقبة قوم نوح الهالكين، وهنا الحكمة في اختيار نوح

من بين أجدادهم دون إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ثم يبين سبحانه أن نوحا تركزت فيه صفتان عظيمتان: العبودية الخالصة لله، والشكر الدائم بالقول والفعل.

٢. قصة بني إسرائيل

﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨)﴾

ينتقل السياق بعد التنويه بشأن حادثة الإسراء، والإنعام على بني إسرائيل بإنزال رسالة التوراة، إلى بيان المراحل المفصلية في تاريخ بني إسرائيل، التي تنم عن عدم اهتدائهم بالتوراة، وعَرْضِ السنن الإلهية الحاكمة في نهوض الأمم وركودها.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ القضاء بمعنى: التقدير، وتعديته بإلى يفيد معنى أَبْلَغْنَا وَأَوْحَيْنَا، وَ"الكِتَابُ" راجع إلى التوراة، أو الألف واللام في (الكتاب) للجنس لا للعهد، فيكون بمعنى الكُتُب، أي كتب دينية غير التوراة، أو كتب معها كتاب التوراة، وقد ورد أن لهم كتبا أخرى مسماة بالأنبياء؛ كأشعياء، وأرميا، وحزقيال، ودانيال، فيها حديث مشابه لما فصله القرآن في هذه الآيات، والله أعلم بصحة ذلك، والإفساد المنسوب لبني إسرائيل جميعِهِم هو مشاركتهم في عمليات القتل والتدمير والتخريب التي تقع على الأرواح والمنشآت وأماكن العبادة وغيرها، وسيقع في تاريخهم هذا الإفساد مرتين، والقضاء الإلهي بهذا، ليس من قبيل إجبارهم على الإفساد، بل أنبأهم بما ستؤول إليه أفعالهم وتصرفاتهم الطائشة، وَعِلْمُ الله أزليٌّ مُطْلَقٌ، لا تبدو له البدوات ﷻ، ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ وسيكون إفسادُكم في الأرض مقرونا بالعلو الكبير؛ أي بالطغيان والتجبر واستضعاف الخلائق، ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ فعند تحقق إفسادِكم وعُلُوِّكُم في المرة الأولى، سَلَّطْنَا عليكم خَلْقًا من عبادنا، ذَوِي قُوَّة حَربِيَّة شديدة، ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ والجوس: التخلل في البلاد وطرقها ذهابا و إيابا لتتبع ما فيها، والمراد به: سيطرتهم التامة على مدنهم ودُورِهِم، لمحاربتهم والقضاء عليهم، ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ وما وُعِدتُم بِهِ جزاءَ إفسادكم الأول سيكون مُنْجَزًا مُحَقَّقًا، ولا رَادَّ لقَضَاءِ الله، ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ وبعد ضعفكم وانهزامكم نرجِعُ إليكم الدُّولَةَ والغلبةَ لتكونوا أسيادا عليهم، ﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ وَنُزَوِّدُكم بالقوةِ الماليةِ والبَشَرِيَّةِ، ليكونَ

عَدَدُكم أَكْثَرَ مِنْ ذي قَبْلُ، وفي الآية إشارة إلى أن كثرة العدد سبب للقوة لا للضعف، بخلاف ما هو شائع من النظر إلى الكثرة بأنها سبب الفقر وضعف الاقتصاد، والنفير: اسمُ جَمْع للجماعة التي تنفر مع المرءِ من قومه وعشيرتِهِ، ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ جملةٌ تُعَلِّلُ سبب رد الكرة لهم على أعدائهم؛ بمعنى: رَدُّنَا لكم الكرةَ كان جزاءَ إحسانِكم بالاهتداء والتوبة والإصلاح في الأرض، فاستقامَتُكُم على الطريقة إِحْسَانٌ لأنفسكم، بتمكينها في الأرض والانتفاع ببركات السموات والأرض، وحصولِ الثواب الجزيل في الآخرة، واحذروا الإساءة والانقلاب على الأعقاب، لأن وَبَالَهَا وَشَرَّهَا -أي الإساءة- عَائِدٌ على أنفسكم، وتكريرُفعل "أَحْسَنْتُمْ"؛ تنويهٌ واهتمامٌ بالفعل، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠]، وأما قوله: "فَلَهَا" ولم يقل: فإليها أو فعليها؛ للتقابل مع "لِأَنْفُسِكُم" كما قال النحويون، مع أن حروف الجر يقوم بعضها مقام بعض، ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ تفريع على قوله: "وإن أسأتم فلها"، أي فإن أسأتم وجاء وعدُ الإفسَادِ الثاني في الأرض، كما أَعْلَمَكُم به ربكم في الكتاب، سنبعث عليكم عبادا لنا -حَذَفَ جَوَابَ "فإذا جاء وعد الآخرة" وتقديره: بعثناهم، و إنما حَسُنَ هذا الحذفُ لدلالةِ ما تقدم عليه من قوله: "بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا"- يفعلون فيكم هذه الأعمال التالية: ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ يسلطون عليكم أسباب المساءة والكآبة والغم والحزن فتبدو ظاهرةً على وجوهِكم، ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ويدخلون المسجد الأقصى مخربين، كما دخلوه أول مرة، عند جوسهم خلال الديار، ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ "ما علوا" أصلها "ما علوه"، حذف عائد الصلة لأنه متصل منصوب، والمعنى: يُهْلِكُونَ ما عَلَوْهُ إهلاكا، والعُلُوُّ هُنَا مجازي؛ أي الاستيلاء والسيطرة، ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ الجملةُ فتحٌ لبني إسرائيل لبابَ الأمل والرجاء، والمعنى: إن رجعتم عن إفسادكم وأخبتُّم إلى ربكم والتزمتم نهج التوراة السوي، سيرحمكم برحماته الواسعة، ويعيد لكم مجدكم الذي كنتم فيه، ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ كما فتح لهم باب الأمل حذرهم و أنذرهم بغضبه، والمعنى: إن تماديتم وعدتم إلى الإفساد في الأرض سنعود عليكم ببطشنا وجبروتنا، وكان وعدُنَا مفعولا، مع ما ندخره لكم من العذاب الأخروي، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ وجعلنا جهنم لمن عاث في الأرض فسادا، وألقى وحي ربه وراء ظهره، سِجْنًا ومُسْتَقَرًّا لا خروج منه، والحَصِيرُ: المكان الذي يحصر فيه فلا يستطيع الخروج منه.

وأما أعيان العباد الذين يبعثهم الله على بني إسرائيل، فلم يتطرق القرآن إليهم، ولذا فلا حاجة لنا في معرفتهم، و إنما العبرة بالسنن والقوانين الإلهية التي تحكم الأمم والمجتمعات، المفندة للمزاعم والأوهام الانتمائية والقبلية، فهؤلاء بنو إسرائيل الذين زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، يرد الله عليهم بالقانون الصارم الذي لا يحابي أحدا: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: ١٨]، وَمَا العقوبات المسلطة عليهم جزاء إفسادهم في الأرض مرتين إلا نموذجٌ للمعاملة الإلهية النافذة، المتعالية

على الأشخاص والأقوام والأزمان والأمكنة، إلا أنه قد اختلف في تحديد زمن المرتين، ففريق ذهب إلى أنهما قد وَلَّتَا وهو رأي الجمهور، وفريقٌ قال بعدم وقوع المرة الثانية، لامتلاك اليهود والحركة الصهيونية دواليب السياسة والاقتصاد والإعلام في هذا العصر الحاضر، والسيطرة بها على العالم والمسلمين خاصة، ليتمكنوا بذلك من تحقيق أغراضهم الفاسدة ونواياهم الخبيثة ضد القرآن الكريم والقيم الإسلامية الأصيلة، وحتى على رأي الجمهور القائلين بأن العذاب مرتين قد نزل ببني إسرائيل من قبل فإن الله قال: (وإن عدتم عدنا) فهو توعد من الله لهم بنزول العذاب إن عادوا للإفساد، وقد عادوا فنسأل الله أن يعود عليهم بالعذاب والاستئصال.

٣. القرآن كتاب هداية للناس

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠) وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (١١)﴾

بعد ذكْرِ ما نَالَ بني إسرائيل من العذاب والخزي الدنيوي جزاء إعراضهم عن الهدى الإلهي-التوراة- ، يقرر الله للأمة الإسلامية المنهج الذي تسيرُ وفقه -القرآن-، ويبين مزاياه وخصائصه المكنونة فيه، تحذيرا وتنبيها للمسلمين مما وقع فيه بنو إسرائيل، وقد شغلت وقائع بني إسرائيل في القرآن القسط الأكبر، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أداة الإشارة "هَذَا" تفيد التنويهَ بشأن القرآن الكريم ومقامه، والهداية هنا بمعنى البيان والإرشاد، لا هدايةَ التَّوفيق والثبات على الطريق المستقيم، أي يَسْلُكُ القرآنُ بالإنْسَانِ الطريقَ التي هي أقومُ الطُّرُقِ، بمعنى أرشدها وأصوبها وأتقنها وأعدلها وأنجعها وأَسَدِّهَا، و"أَقْوَمُ" صيغة تفضيل للقويم، مسلوبُ المفاضلة في هذا الموضع، لأنه لا يمكن بأي حال تفضيل القرآن الكريم على الكتب الأخرى السماوية في الاهتداء، بل كلها تهدي للطريق التي هي أقوم، وهو طريق الله الذي ارتضاه لعباده منذ آدم عليه السلام إلى قيام الساعة، إلا أننا يمكننا استخلاص أن القرآن أقوم من الكتب الأخرى فهو معجزة خالدة ورسالة خاتمة، تَتَجَاوَبُ مع التحديات الكبرى التي يفرزها الواقع الإنساني إلى آخر لحظة في الدنيا، وتُقَدِّمُ الحلول الكلية والبدائل الناجحة، بأقصر الطرق وأيسرها، وهذا ما تفقدهُ التجربة البشرية، في فلسفاتها الوضعية ومذاهبها الفكرية.

ومن الوظيفة الكبرى الأساسية للقرآن الكريم وهي الاهتداء، إلى بيان الثمرات التي يقطفها المهتدون المتقون في الدنيا والآخرة ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ في القرآن الكريم

بِشَارَاتٌ وأجورٌعظيمة سواء دنيوية وأخروية؛ جزاءً لمن حَصَّلَ الإيمان الحَقَّ في قلبه، وجسده بعبوديته الخالصة في العبادات الدينية وعلاقاتِه مع الآخرين، وتكاليفِه العملية ومختلِفِ جوانب حياته المتعددة والمتشعبة، ومن أعظم البشارات في الدنيا تكريم الإنسان بالحياة الطيبة بمفهومها الشمولي، وفي الآخرة مغفرةُ الذنوب ورضوان الله، وَتَنَعُّمُهُ في رَوْضَاتِ الجنات أبد الآبدين، ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وَيُبَشّرُ القرآنُ الكريمُ المكذّبِين باليوم الآخر–من قبيل التَّهَكُّمِ- بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، سواء كانوا منكرين جاحدين له، أو موحدين مكذبين به بما يَدُلُّ من إصرارهم على أعمالهم المخالفة للوحي، ويؤكد هذا قولُه تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النور: ٢]، ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ عندما يعتري الإنسانَ هَمٌّ أو حَزَنٌ أو ضجرٌبسبب مصيبة ما، يَنْزَغُ لَهُ الشيطانُ بأن يدعوَ بالشَّرِّ على نفسه أو أهله أو من كان سببا في مصيبته، ويحسب أن ذلك انتقام ورد للعدوان، وهو غيركذلك، فالأجدربه أن يتقيَ الله ويحتسِب أمره لله -وهذا من تمام الإيمان والعمل الصالح المذكور قبلا-، ليطمئنه الله ببشرى الخروج الآمِنِ من مصيبته وكربته، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، وقوله "دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ"، مَصْدَرٌيُفِيدُ التَّشْبِيه، أي يَسْتَعْجِلُ الإنسانُ الدعاءَ بالشركاستعجالِهِ الدعاءَ بالخَيْرِ، وهذا من غرائب الإنسان، فتارة تجده يدعو بالخير لنفسه وأهله ووطنه ومجتمعه وممتلكاته، وتارة يدعو على نفس تلك المذكورات بالشر، فما أعجب جنس الإنسان!، فلو يستجيب الله دعاءه بالشر لهلك في ذلك الحين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ﴾ [يونس: ١١] وينتفي إعجابنا بالإنسان حينما نُدْرِكُ أن العجلة طبعٌ جُبِل عليه، قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ فالعجلة طبعٌ في الإنسانِ أصيلٌ، سواءً في الخيرأوفي الشر، إلا أنه بإمكان الإنسان بما عنده من الملكات الإيمانية أن يُرَوِّضَ نَفْسَهُ على التأني والتريث وعدم العجلة، ويعودها الصبرعلى الأذى والمكاره.

٤. آيتا الليل والنهار، ومسؤولية الإنسان على أعماله وسنة إهلاك القرى

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (١٢) وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ

رَسُولًا (١٥) وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧)﴾

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ الجَعْلُ بمعنى الخلق والتكوين، خلق اللهُ الليلَ والنهارَ علامتين دالتين على وُسْعِ عِلْمِهِ وعَظَمَةِ قدرته وبديعِ صُنْعِهِ، وتظهر عَظَمَتُهُمَا جَلِيًّا في تَعَاقُبِهِمَا المستمر منذ خلق الكون إلى قيام الساعة دون خَلَلٍ أو تَأَخُّرٍ أو تَقَدُّمٍ، و انسلاخ النهار من الليل، و انضباط مدة كل واحد منهما صيفًا وشتاءً وربيعًا وخَرِيفًا، ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ إِضَافَةُ "الآية" إلى الليل والنهار، يجوز أن تكون بيانية؛ بمعنى: الآية التي هي الليل، والآية التي هي النهار، أو إضافة حقيقية؛ بمعنى آية الليل هي القمر، و آية النهار هي الشمس، لِتُفِيدَ معنًى غير الآيتين الأُولَيَيْنِ، وتُذَكِّرَ بهذين الخلقين العظيمين -القمر والشمس . ، وإرادة الإضافة الحقيقية هو الأبلغ والأعمق والأنسب مع بلاغة القرآن الكريم، فالمَحْوُ طَمْسُ ضَوْءِ القَمَرِ، وجعلُهُ بدون نور، فيكتسب توهجه بانعكاس نور الشمس على كرته، فيكون الليل مظلما، تختفي فيه الأشياء، وَ"مُبْصِرَةً" اسم فاعل (أَبْصَر) المتعدي، أي جَعَلَ غَيْرَهُ بَصِيرًا، وتكونُ الشَّمْسُ سَبَبَ إبصار الأشياء، فظلام الليل وسكونه يساعد على راحة الإنسان، وأما نور النهار فيبعث على النشاط والحركة والعمل و إبصارِ الأَشْيَاء، ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ علة خاصة بآية النهار، والإشارةُ إليها كافيةٌ بِعِلْمِ عِلَّةِ ضِدِّهَا -آية الليل-، والمعنى: ضياء النهار وإشراقه وحيويته يحفزكم على طلب أرزاق ربكم، والمثال الأظهر على ذلك: الشمس شرط ضروري في نبات الزروع، فلو تخلف الشرط ينعدم الإنبات، ويتوقف المزارعون عن العمل، فلا يجد الإنسان قُوتَ يَوْمِهِ، ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ وهذه علة للآيتين معا؛ أي بتعاقب الليل والنهار تدركون عَدَدَ السِّنِين بِعَدَدِ الأيَّامِ والشهورِ، وتَعْلَمُونَ فَنَّ الحساب، فتحسبون به آجال مواعيدكم وديونكم وإجاراتكم ومعاملاتكم، وتضبطون مواقيت الصلاة والحج والصوم والزكاة، فلو كان الزمان غير مقسم في أجزائه لما استطاع الإنسان حساب شيء، ولو كان الزمان ليلا فقط لما قدر على العمل والنشاط والحركة، ولو كان نهارا سرمديا لما وجد ظرفا ملائما لراحته وسلامة جسمه.

بعد بيان النظام الزمني المعتمد على الآيتين المخلوقتين، ينبهنا الله بقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ انتصب "كُلَّ" بفعل مضمر يفسره "فَصَّلْنَاهُ"، التَّفْصِيلُ: التَّبْيِينُ والشَّرْحُ ونَفْيُ الالتباس، أَيْ: وكُلَّ شيء تحتاجونه في كليات العقيدة والتشريع والأخلاق والأخبار وأساسيات التكوين -الكون- قد بَيَّنَّاهُ لَكُم تبيانًا واضِحًا شَافِيًا، ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ وأصلُ كلمةِ الطَّائِرِ جاء من: رَمْيِ السهام التي في آخرها الريش المرقومة بأسماء المتقاسمين على الشيء المقسوم المُعَدّ للتوزيع، فكل من وقع السهمُ المرقومُ باسمه على شيء أَخَذَهُ، فهذا الفعل يسمى الطيران، والطائر هو السهم، وأُطْلِقَ في الآية

على حظ الإنسان من العمل، مثل ما أُطْلِقَ اسمُ السهم على حظ الإنسان من شيء ما، والمعنى: وكُلَّ إنسان جعلنا عمله الخَيِّرَوالسَّيِّئ في عُنُقِهِ ملازما له غير مفارق له، لا يتملص منه، مسؤولٌ عنهُ بأكمله، لا يُنْقَصُ منه شَيْءٌ، والعُنُقُ دلالة على الملازمة والمصاحبة والقرب، أي عمله ملازم له لزوم القلادة لعنق المرأة، ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ "كِتَابًا" مفعولٌ لِنُخْرِجُ، أو حال لمفعول محذوف تقديره: "وَنُخْرِجُهُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَابًا"، "مَنْشُورًا": النشر ضد الإخفاء والإضمار، والمعنى: ونُظْهِرُ يوم القيامة لكل إنس ما كان يعمله من الخير والشر في شكل كتابٍ مسْطُورٍ، يجده مكشوفا أمامه، واضحا في عينيه، لا يقدر على إخفاءِ شيء منه، ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ جملة "اقْرَأْ..." مقول قائل محذوف يدل عليه السياق، والتقدير: يُقَالُ له، "حَسِيبًا" فعيل بمعنى فاعل؛ أي حاسب وضابط، والمعنى: يقال له: تَصَفَّحْ كِتَاب أعمالك وطالعه، لا شَاهِدَ اليوم على نفسك شَهَادَتُهُ تامة كشهادة ذلك أَنْتَ. وبعد الأَمْرِ بالقراءة سيصنف الناس إلى فريقين لا أكثر، على أساس القاعدةِ الإلهيةِ العادلة: الجزاء من جنس العمل، ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ الفريق الأول: السائرون على الهدى، المطيعون الله ورسوله في كل أُمُورِهِم، التائبون من جميع ما أسرفوا على أنفسهم، الذين رجعت إليهم منافع الاهتداء والاستقامة، ومن أعظمها النجاة من العذاب المهين والفوز بجنات النعيم، والفريق الثاني: الضالون المخالفون نهج ربهم، المصرون على عصيانهم، الذين عاد عليهم أضرار الانحراف عن الإسلام وتعاليمه، وأخزى ضرر يتحملونه: غضب الإله المتعالي، وتَبَوُّؤُ المقاعد في النيران أبد الآبدين، وبين أفراد الفريق الثاني يقطع الله العلائق والوشائج، وَيُحَمِّلُ كُلَّ نَفْسٍ مُذْنِبَةٍ تَبِعَةَ مَا اقْتَرَفَتْهَا ﴿وَلَا تَزِرُوَازِرَةٌ وِزْرَأُخْرَى﴾ تَزِرُ: تَحْمِلُ الوزرَ، الوَازِرَةُ: النفسُ الحاملةُ الوزرَ، الوِزْرُ: الثِّقْلُ، وهي الذنوب التي تُثْقِلُ كاهل صاحبها يوم القيامة، والمعنى: ولا تَحْمِلُ نفسٌ مذنبةٌ ذنوب نفس أخرى بُغْيَةَ التخفيف والوضع، كُلُّ إنسانٍ شقيٍّ مسؤولٌ عن جميع أعماله، لا يُنْقَصُ من نصيبِهِ مثقالُ ذَرَّةٍ من شَرٍّ، فَيُعْلَمُ استنتاجا: أن النفس السعيدة لا تحمل أوزار النفس الشقية بالأولى، كالشفاعات المزعومة في اليوم الآخر الواقعة بين الأقوام وأنبيائهم أو صالحيهم. يستقصي الله تعالى في إعذار صنف الأشقياء بقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وسياق الآية بما قبلها يتضح في هذا المعنى الدقيق: (إن كنا لم نرحمكم في الآخرة وعذبناكم جزاء إعراضكم، فلا تنسوا أننا رحمناكم في الدنيا ولم نعذبكم حتى أتاكم الرسول من عند الله يُنْذِركُم وَيُبَشِّرُكُم وَيُعَلِّمُكُم ما يجب عليكم، فلما كذبتم ولم تشفقوا على أنفسكم حق عليكم العذاب الدنيوي، وبالأحرى سيحق عليكم عذابي في النار يوم القيامة)، فدلت الآيةُ على أن مؤاخذةَ الله للناسِ تكون بعد بعث الرسل إليهم، فلا موجب لأخذهم قبل مجيء الرُّسُل.

ثم يبين الله طريقةَ تعذيبه لأهل القرى جزاء إباقهم بعد بعثة الرسل، وكيفيةَ تَمَثُّلِهَا في الواقع، تجسيدا لقانونه الصارم: "وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا"؛ بقوله: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا

مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ ظاهر الآية: إرادة الله الإهلاك (شرط)، و(جوابه): أمرنا مترفيها ففسقوا...، فيكون المعنى: الله أراد الإهلاك فقهر أهل القرية على الفسق فدمرهم، إلا أن ظاهر الآية ممتنع في حق الله تعالى، لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨]، فليس من شأن الله إهلاك قوم قبل أن يأتوا بمسبِّبِهِ، ولا من حكمته أن يسوقهم إلى ما يفضي إلى مؤاخذتهم ليحقق سببا لإهلاكهم، وخروجا من هذا الظاهر الممتنع في حق الله إلى التأويل الأرجح الأنسب بمقام الله وقوانينه العادلة، نجعل الواو العاطفة قبل (إذا) بين الفعلين (نَبْعَثَ) وَ(أَمَرْنَا)، لأن الأفعالَ يُعطفُ بعضُها على بعض سواء اتحدت في اللوازم أولا، فيكون أصل نظم الكلام هكذا: "وما كنا معذبين حتى نبعثَ رسولاً ونأمر مترفي القرية بما أمرهم به رسولهم، فيفسقوا عن أمرنا، فيحق عليهم الوعيد فنهلكهم إذا أردنا إهلاكم" فيكون: "وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً" شرطاً لحصول الإهلاك، أي ذلك واقع بمشيئته وإرادته، ولا مكره له، وهذا الأمر شائع في القرآن كقوله: ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٠٠]، والمُتْرَفُ: اسم مفعول من أترفه، أي أعطاه الترفة؛ وهي النعمة، فالمترفون: أهل النعمة وسعة العيش، وهم الأسيادُ وشرفاءُ القوم على العموم، "أمرنا مترفيها" دعوناهم بدعوة رسلنا، لأنهم أول من تُوَجَّهُ إليهم الدعوةُ، فباستجابتهم تستجيب الدهماء الذين تحت سيطرتهم، "ففسقوا فيها" يخرجون عن طاعة رسولهم، فَتَحِقُّ عليهم كلمة العذاب ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ "القَوْلُ" هو الوعيدُ الذي يُبَلِّغُهُ الرسولُ لقومه حال عدم الاستجابة، التَّدْمِيرُ: التخريبُ الشديد، والمعنى: حَقَّ عليهم الوعيد الذي أُخْبِرُوا به بسبب عدم امتثالهم، فدمرناها -أي القرية- تدميرا، والتأكيد بالمصدر دلالة على عظم التدمير، والتدمير متعلق بأهلها أيضا، لأن إطلاق التدمير على هدم المنشآت مجازي علاقته الإطلاق، والظاهر أن التدمير حقيقته إهلاك الإنسان، وفي الآية الكريمة ما يدل على خطورة الترف وتحذير الأمة منه ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ "كَمْ" خبرية تفيد التكثير والإبهام في العدد، "القرون" جمع قرن، وهي المدة الزمنية الكبيرة وتقدر بمئة سنة، ويطلق على الناس الذين كانوا في تلك المدة كما هو في الآية، فالمراد من القرون: أهل القرون، وهذا مشابه لقوله تعالى:﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨]، فالآية "وَكَمْ أَهْلَكْنَا..." تمثيلٌ لما سبق في أمر إهلاك القرى بسبب فسوق مترفيها، والمعنى: قرونٌ كثيرة بعد قرن نوح عليه السلام عاش فيها أقوامٌ مُكَذِّبُونَ لرسلهم وأنبيائهم، أهلكناهم بسبب ذنوبهم، "مِنْ بَعْدِ نُوحٍ" إيجاز؛ وكأنه قيل: من قوم نوح ومن بعدهم، لأن قومَ نوحٍ هو القومُ الأولُ المُهْلَكُ بِالطُّوفَانِ، ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ الخطاب موجه للنبي محمد ﷺ وللقارئ بالتبع، والقصد منه طمْأنَة النفس بأن الله عالم بذنوب الأقوام وجرائمهم، لئلا تتحسر وتتألم، والمعنى: الله حسبك وكافيك، عالمٌ بسيئات عباده، لأنه القادر على معرفة الجهر والسر، والعمل والنية ﷻ.

٥. إرادة العاجلة وإرادة الآخرة

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١)﴾

هذه الآيات تبيان لجملتي ﴿مَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الْإِسْرَاء: ١٥] و﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الْإِسْرَاء: ١٣] بحيث بين الله للناس بأن أعمالهم من كسبهم واختيارهم، وحمَّلهم تبعاتها؛ فلا أحد يتحمّلها عنهم أو معهم، ووكل أمرهم إليهم، ثم بين لهم أن الناس صنفان من حيث مقاصدهم من أعمالهم؛ فمنهم من أراد بها الدنيا قاصرا فكره وهمه عليها، ومنهم من أراد بها الآخرة لمّا علم أن الفوز الحقيقيّ إنما هو فيما بعد الدنيا فعمل لذلك وسعى له.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ "العاجلة" صفة لموصوف محذوف يُعلم من السياق؛ أي الدار العاجلة وهي الحياة الدنيا؛ من كانت همَّه ولا يريد بعمله إلا إياها ولم يعمل للآخرة ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ "المشيئة" القيام بفعل عن طوع نفس ودون إكراه، "الإرادة" مرادف المشيئة؛ أي يعجل الله في الدنيا قبل الآخرة بمشيئته ما يشاء ممّا كتبه لمن أراد العاجلة. و"لِمَنْ" بدلٌ من "لهُ" وهو بدل جزء من كل؛ ولا ينال أحد كلّ ما تمناه إلاّ بمشيئة الله. وإرادة العباد مخلوقة لله ﷻ مع أنها من كسبهم واختيارهم ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ "يصلاها" يقاسي حرها، "مذموما" ملوما، "مدحورا" مطرودا؛ عندما يعجل الله ما شاء في الدنيا لقاصر همّه عليها؛ يجعله في الآخرة يدخل النار حقيرا مطرودا ويقاسي حرّها؛ ولقد كان فعل الإرادة في العاجلة مضارعا (أراد) تنبيها إلى أنه يتكرر لزواله كل مرة وبأن العاجل منقضٍ وذاهب ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ "السعي" المشي دون العدو؛ أي من قصد بعمله نيل ثواب الآخرة ورضا الله ثمّ سعى من أجل تحقيق ذلك؛ ومن السعي للآخرة الائتمار بالأوامر والانتهاء عن النواهي، وهنا تنبيه إلى أن تحقيق الإرادة لابد له من السعي وأن إرادة الآخرة دون السعي لها غرور، واشتراط الإيمان مع السعي (وهو مؤمن) حال جيء بها للتأكيد بأن الإيمان داخل في السعي للآخرة ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ أي الجامعون للخصال الحميدة الثلاث المذكورة آنفا؛ إرادة الآخرة، والسعي لها، والإيمان بالله واليوم الآخر؛ أولئك يُتقبل منهم عملهم ويثابون عليه الثواب الحسن، وشُكْرُ الله لهم هو إثابتهم على العمل الصالح؛ وذَكَرَهم باسم الإشارة تنبيها إلى ما يُذكر من عطاء لهم على أنهم قد استحقوه ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ "العطاء" ما يُعطى، "محظورا" ممنوعا، "الإمداد" استرسال العطاء وتعاقبه بحيث لا ينقطع؛ أي إن الله يعطي كلاّ من

الفريقين؛ المريدين الدنيا الفانية والمريدين الآخرة الباقية، ويُمِدّ اللهُ ولا يمنع أحدا من الفريقين من عطائه وفضله في الدنيا؛ بل لكلّ منهم نصيبه من الولد والمال والجاه وصحة البدن والعقل ولكل رزق مكفول من عند الله ، والتنوين في "كُلاًّ" عوض عن المضاف إليه، وهو منصوب على المفعولية لفعل "نُمدُّ"، ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ الأمر بالنظر موجه إلى الرسول ﷺ؛ والقصد به النظر بتدبر و"كيف" للتنبيه؛ أي إن الناس في الدنيا متفاوتون في تفضيل الله بعضهم على بعض في الولد والمال والجاه، وتفاوتهم ليس منوطا بعملهم لذلك قد يَفْضُلُ المؤمن الكافر، وقد يَفْضُلُ الكافر المؤمن، وقد يَفْضُلُ بعضُ المؤمنين بعضا، وقد يَفْضُلُ بعضُ الكافرين بعضا، وفي الآخرة يكون تفاوتهم أعظم وأهم؛ إذ إنه تفاوت في درجات الجنة مقابل دركات النار.

٦. وصايا الله لعباده بنبذ الشرك والإحسان إلى الوالدين

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (٢٢) وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥) ﴾

لما كان أساس النجاة يوم القيامة الإيمان والعمل الصالح؛ جعل الله مجموعة من النواهي والزواجر يقوم على الانتهاء عنها بنيان المجتمع المسلم وتتكون أواصر القرابة وفي ذلك صلاح عظيم للأمة المسلمة، فبدأ بذكر موقف المشركين المكذبين من القرآن ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ "تقعد" تصير، "المذموم" المذكور بالسوء والعيب، "المخذول" الذي أسلمه ناصره، أي تخلى عنه وقت الشدة. هذا خطاب للنبي ﷺ أريد به إسماع غيره من أمته به بقرينة أن النبي قائم بمحاربة الشرك. والقعود هنا أريد به المكث والدوام؛ بمعنى أن المشركين إن أصروا على الشرك استمروا في المذمة من ذوي العقول لأنهم اتخذوا آلهة من أحجار صماء عاجزة، ومن الله لأنه ذمّ الشرك في كل الشرائع، وباؤوا بالخذلان من آلهتهم التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنهم شيئا، ومن الله لأنه لا يتولى المشركين به. والآية تذييل على اختلاف المشركين المريدين للدنيا عن المؤمنين المريدين للآخرة في فضل الله؛ بأن خلاصة الفوز في الآخرة هي الإيمان وعدم الشرك، والعمل الصالح يأتي تبعا له ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ "أفّ" اسم صوت يدل على الإحساس بالضيق والضر، "النهر" الزجر بغلظة، "قولا كريما" الكريم من كل شيء الرفيع في نوعه. أي أمر الله أمرا مقطوعا به بأن يُفرد بالعبادة لأنها غاية التعظيم ولا

يستحقها إلا الله العظيم غاية العِظم، وأمر الأبناء ذكورا و إناثا بالإحسان إلى الوالدين؛ فإن كانت الطاعة تقتضي الائتمار بأمرهما والانتهاء بنهيهما، فإن الإحسان فوق الطاعة؛ فيقتضي الإتيان بما يصلح لهما ويرضيهما قبل تلقي أمرهما والانتهاء عما يسخطهما قبل تلقي نهيهما، ولا سيما إن بلغا مرحلة الكبر- مرحلة الشيخوخة- تحت كفالة ابنهما أو بنتهما؛ فإنهما يصيران كالطفل في العجز والحاجة إلى الرعاية، وقَرَنَ بحق الله حقَّهما لعِظمه فقد بلغ إحسانهما بالولد الغاية. فالله هو الخالق وهو غني عن الإحسان ومستحق للعبادة، أما الوالدان فهما مظهر وجود الإنسان وبحاجة إلى الإحسان دون العبادة، ولا يستحقانها، وفي سياق الإحسان إلى الوالدين نهى الله الولد عن انتهارهما على ما لا يعجبه منهما، أو إبداء أدنى شيء يُظهر الضجر منهما كالتأفُّفِ، وأمر فوق كل ذلك بأن يقول لهما قولا لطيفا لينا. والإحسان إلى الوالدين وعدم انتهارهما والتأفف عليهما، والتزام القول الكريم لهما كل ذلك واجب قبل كبرهما، وهو مؤكد عند الكِبر؛ لتهاون الولد بهما في تلك المرحلة مع شدة حاجتهما إليه، وقضى ربك: أي أمر أو أوجب أو حكم ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ أمر من الله للولد بالتواضع للوالدين إلى حد التذلل؛ لأن ذلك يُذهب وحشة نفسيهما؛ لأنهما يبغيان أن ينفعا الولد لا أن ينتفعا به، لذلك وجب شكر إنعامهما السابق وفي ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ استعارة مكنية وتصوير لهيئة التواضع بتذلل الطائر عند خوفه من طائر أقوى منه فيخفض جناحه، وهذا التذلّل والتواضع من الولد للوالدين يكون رحمة بهما على أنهما صارا محتاجين إليه بعد أن كان في أشدّ الحاجة إليهما، فلابد من مقابلتهما بالرقة والرحمة. ثمّ بعد ذلك واجب على الولد أن يدعو الله بأن يرحم والديه كما رحماه صغيرا واعتنيا بتربيته وحسن رعايته. والإحسان إلى الوالدين واجب ولو كانا مشركين، لكن لا يكون الدعاء بالرحمة والمغفرة لمن ليس من أهل الولاية؛ فإن كانا كذلك فليدع الولد لهما ما داما حيين بالتوفيق إلى الهداية وإلى ترك معصية ما أو الإتيان بطاعة من الطاعات؛ أو الدعاء لهما برحمة دنيوية غير الرحمة الأخروية.

ولما كان برّ الوالدين وعقوقهما مرتبطا بالقصد والنية حتى إن خالفه الفعل دون تعمد؛ اعتمد ذلك على خلوص النية دون تكلف أو تكاسل؛ فكان تذييل الآية ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ "الأوابين" جمع أواب؛ وهو كثير التوبة والإنابة، من "الأوب" وهو الرجوع، أي إن الله يعلم أحوال المأمورين ببر الوالدين على اختلافها؛ ويعلم منهم ما يضمرون من قصد البر أو العقوق بالوالدين؛ فقد يصدر منهم ما يُفهم منه العقوق وهم لا يقصدونه، وقد يتوهمون بإتيانهم الطاعة بأنهم بارُّون بوالديهم بذلك في وقت هم مستثقلون كارهون لها؛ دون أن يعالجوا أنفسهم من ذلك؛ فيجازي الله كلاًّ على قصده ونيته؛ وهنا تحذير لهم من التقصير والتفريط، فإن كنتم بارّين بوالديكم في طاعة الله والوفاء بدينه، فإنه يغفر لكم ما بدر منكم –من غير قصد- مما يسوؤهما أو من الذنوب عموما على أن

تقصدوا التوبة والإنابة من ذلك؛ ولقد جاءت الآية بالتيسير بعد التعسير مع تضييق وتحذير ليكون الإنسان على نفسه رقيبا. وكان الخطاب في الآية السابقة للعموم بخطاب المفرد الذي هو بدل من العموم، وفي هذه الآية وجه الخطاب للعموم الشمولي للبيان بأن المراد به ليس شخصا معينا إنما هو عام؛ و أيضا كراهة لتكرار الصيغة، والآية معطوفة على ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ فهي من جملة ما أمر الله به وقضاه.

وفي تذييل الآية بقوله: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ حصر للمغفرة على الأوابين. أي التائبين. فلا مغفرة بدون توبة.

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠)﴾

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ بمناسبة أمرِ الله الناس بطاعة الوالدين؛ أمرهم بالإحسان إلى "ذي القربى" وهم ذوو القرابة من جهة الأم أو جهة الأب، وذلك بإعطائهم حقَّهم من مال، أو نفع، أو صلة وسلام؛ سواء أكانوا بحاجة إلى ذلك أم في غنى عنه، "آتِ" أعطِ، والإعطاء حقيقة لإعطاء الأشياء، ويطلق على الأمور المعنوية بمعنى التمكين؛ كالنصرة وحسن المعاملة، وإطلاقه هنا يحمل كِلا المعنيين، قال الشيخ أطفيش: «وَإِن احْتَاجُوا ولاَ مَكْسَبَ لَهُمْ وَجَبَ عَلَيْهِ الإنفَاقُ عَلَيْهِم[1] بِقَدْرِ الإرْثِ فِيمَا بَيْنَ العَصَبَةِ...وَيَجِبُ عَلَيْهِ حَقُّ قَرَابَةِ الأُمِّ إِن احْتَاجُوا وَلاَ عَصَبَةَ لَهُم أَوَ لَهُم عَصَبَةٌ امْتَنَعُوا، أَعْنِي يَجِبُ عَلَيْهِ أَلاّ يَتْرُكَهُمْ فَيَمُوتُوا وَإِنَّهُ قَبْلَ غَيْرِه مِنَ الأَبَاعِدِ وَلاَ يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ»[2]، ويفهم من هذا الكلام أن من يورث لو مات وجب الإنفاق عليه من قبل من سيرثه لو مات إن هو احتاج، و"المسكين" من لا يملك ما يسد به حاجته، و"ابن السبيل" المسافر المنقطع عن أهله وماله ولا وسيلة لديه للوصول إلى ماله؛ بمعنى وآت المسكين و ابن السبيل حقهما من البرّ والصلة والمواساة، "التبذير" إنفاق المال في غير موضعه وهو مأخوذ من البذر بحيث تلقى البذور على الأرض كيفما اتفق دون مراعاة لموضع وقوعها. وقد نهى الله عنه نهيا جازما على وجه الإلزام.

لقد كان النهي عن الإسراف بعد الأمر بإيتاء ذي القربى حقه؛ ومنه الإنفاق؛ ذلك ليبقى المال الذي صين عن التبذير للإنفاق المحمود وفي أداء الواجب، والنهي عن الإسراف في الأموال لأنها محدودة،

---

[1] جاء في المصدر بهاء الغائب المفرد.

[2] امحمد اطفيش، تيسير التفسير، ج٨، ص١٦٢

وجُعلت عوضا ليقتنيَ المرء بها ما يحتاج إليه من ضروريات أو حاجيات أو تحسينات؛ فإن أنفقه صاحبه مراعيا هذا الترتيب في الإنفاق أمن الفاقة، أمّا إن زاد عن هذا الحدّ صار إنفاقه إسرافا حتى لو كان من أهل الوفرة في الأموال؛ لأنها لا تتسع على أحد إلاّ إن ضاقت على آخر؛ لذلك لابدّ أن تسخّر لإقامة أوَدِ ذوي الحاجة والمعوزين؛ ومن ثمّ وجب أن تكون لمصالح القرابة وبالتبع مصالح الأُمة؛ وبهذا تكون الأموال عزة للأمة إذ بها تسدّ حاجتها، وتصون نفسها عمّن يبتزّ منافعها من أجل بذل المال لها ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ هذه الآية تعليل للتشديد في النهي عن التبذير، لأن من يعتاده يكون "أخا للشيطان" كناية عن ملازمته وعدم مفارقته؛ لأنه من عمل الشيطان، والعامل على شاكلته لاشك هو عون له، وفي نهايتها تحذير بأن التعوّد على التبذير يفضي بصاحبه إلى الكفر تدريجيا بتخلقه بالطبائع الشيطانية، وهو من كفران نعم الله؛ وكان الشيطان كثير الكفران والجحود لنعم الله ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ "إن" شرطية أُدغمت في الميم "ما" للصلة، والآية عطف على ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ بمعنى: فإن أعرضت عنهم لعدم الجِدَةِ فليكن إعراضًا من أجل طلبك رزقا وفضلاً من الله لتعطيهم منه، وليكن ذلك مع لطفٍ ولينٍ في القول، ووعدٍ لهم بأن تعطيهم إذا فتح الله عليك؛ وفي هذا تأديب للمؤمن بألاّ يحمله الشحّ على الفرح بقلة اليد إذا سُئل ليُعفي نفسه من العطاء. وكان الرسول ﷺ إذا سأله أحد عطاء وليس بيده ما يعطيه أعرض عنه وسكت حياء بأن يقابله بالرد؛ ولكي لا يُحملَ هذا الإعراض على البخل وجب أن يصحبه القول الميسور. و"الإعراض" ضد الإقبال، وهو مشتق من العُرض؛ ويعني: إعطاء الجانب، و"الميسور" من اليسر وهو لين الجانب، و"الرحمة" هي الرزق الذي يكون منه العطاء لأن العطاء تحصل به الرحمة ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ لا تمنع يدك من الإعطاء وكأنها مربوطة إلى عنقك؛ وهذا كناية عن الشحّ، ولا تتوسع في الإنفاق إلى حد الإسراف فتُضْحيَ فارغ الكفين، فمن بسط كفيه ولم يقبضهما سقط كلّ ما بهما. ولقد تقرر في حكمة الأخلاق أن لكل خلق طرفين ووسطا؛ فطرفا الإنفاق البخل والإسراف؛ وهما إفراط وتفريط منهي عنهما؛ ووسطه الاعتدال في الإنفاق وهو المأمور به. "المغلولة" المقيدة بالغِلّ إلى العنق ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ فتصير مذموما من قِبَلِ الله والناس بسبب البخل، "محسورا" منهوك القوى، فارغ اليد بسبب الإسراف في الإنفاق ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ إن الله وفق علمه وحكمته يوسع الرزق على من يشاء من عباده، ويضيق على من يشاء؛ ذلك لأنه عليم بأحوال عباده وما يصلح لهم وما جبلت عليه نفوسهم ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ العالم بالمُبصَرات؛ معناه أن الله عالم بأخبار عباده وأسرارهم، وبصير بعلنهم ويرزقهم حسب علمه بظواهرهم وبواطنهم.

٧. تشريعات لصيانة المجتمع المسلم

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (٣٣) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (٣٩)﴾

﴿وَلَاتَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ قُصد بالأولاد البنات؛ لأن الولد يطلق على المذكر والمؤنث، ولأن الذي كان يُقتل في الجاهلية هن الإناث، إلا أن معنى الخطاب يشمل الذكور كذلك.

والخطاب موجه للناس عموما وللعرب وقت الرسول ﷺ خصوصا؛ بمعنى: لا تقتلوا أولادكم مخافة أن يحل بكم الفقر. والخطاب موجه للأغنياء من العرب؛ إذ كانوا يئدون البنات لعجزهن عن العمل والاكتساب؛ مخافة منهم أن يفتقروا بسبب عولهن، وهذا خلاف للنهي المتقدم في آية بسورة الأنعام بصيغة مختلفة؛ في قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ [الْأَنْعَام:١٥١] فالخطاب فيها موجه إلى من يقتل البنات لكونه فقيرا عاجزا عن عولهن، أما هنا فيقتلهن خشية الفقر. ولما كان الخطاب في هذه السورة موجها لمن يقتلهن مخافة حلول الفقر مستقبلا ذُكر فيها رزق الأولاد قبل رزق الآباء كمن يقول: نرزقهم دون نقص من رزقكم. ثم علل الله النهي عن قتل الأولاد مخافة الفقر بأن رزقهم مضمون عنده ﷻ، ولأن قتلهم ظلم عظيم و إثم كبير وهو قطع للنسل وإضرار بإحدى الكليات الخمس التي جاء الإسلام ليحفظها وهي النفس، و"الخِطْءُ" اقتراف الإثم عن عمدٍ، وكان مما اتخذوا من أعذار على قتل البنات: وقوعُهن في الزنى من أجل الاسترزاق حالة الفقر فكان النهي الآتي مباشرة ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ فالنهي عن قربان الزنى أبلغ من النهي عن الوقوع فيه، لأنه نهي عن مقدماته بتمنيه أو العزم عليه أو التلويح له؛ لأنه فعل غاية في القبح، وهو بئس الطريق إلى هتك الأعراض التي حِفظُها من مقاصد الدين، والزنى يؤدي إلى اختلاط الأنساب، وتهييج الفتن من أجل نسبة الولد من الزنى؛ فهو فاحشة لأنه سبب في اختلاط الأنساب والتقاتل على الفروج، وهو مقتٌ لأن المرأة الزانية ممقوتة حتى في المجتمعات المتحللة؛ ومن ثم لا سكن في الزنا ولا مودة، وساء سبيلا لأنه لا يُبقي فرقا بين

الإنسان والبهائم في اختصاص الذكور بالإناث. و"الزنى" في اصطلاح الإسلام: مجامعة الرجل امرأةً غير زوجه وغير مملوكته التي لا زوج لها؛ أما في الجاهلية فهو المفهوم نفسه؛ إلاّ أنهم يعدون مجامعة الرجل أَمَةً غير مملوكته بغاء وليس زنًى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كان العرب في الجاهلية متسرعين إلى التقاتل؛ فكان من أسمى مقاصد الإسلام حفظ الكليات الخمس ومنها حفظ النفس؛ بحيث حرَّم قتلها من غير موجب. بهذا النهي لا تقتلوا النفس التي حرم الله قتلها وقال: "النفس التي حرم..." لأن تحريم قتلها معروف من آيات سبقت، أو لأن تحريمها مما لا ينبغي جهله؛ لأن صونها من القتل متواتر من عهد آدم لذلك وصفت وعرفت بمضمون هذه الصلة "التي حرم الله"- إلاّ إن استوجبت القتل بحق شرعي؛ بمعنى: أن كلّ نفس بشرية هي مما حرم الله قتلها، واستثنى من ذلك ما حلّ قتلها منها؛ وهي ما في حديث الرسولﷺ؛ «فقد ثبت في الصحيحين وغيرهما عن ابن مسعود أن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة»[٣]، وهؤلاء الذين يحل قتلهم هم المرتد إلى الكفر بعد أن كان مؤمنا فتحول إلى صف المشركين فكان محاربا للمسلمين، والزاني المتزوج يقتل رجما، وقاتل النفس ظلما؛ ويقتلهم إمام المسلمين حدًّا أو قِصَاصًا ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ من قُتل مظلوما قتلاً عمدًا غير الخطأ فإن لوليه سلطة على القاتل بأن يطالب بالاقتصاص منه فيقتله بإشراف حاكم المسلمين، أو أن يتسلم الدّية، أو أن يعفو عنه ﴿فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾ إذا كان لوليّ المقتول الحق في الاقتصاص من القاتل؛ فإنه ليس له أن يجاوز القصاص إلى الإسراف في القتل؛ بأن يقتل القاتل بما يعذبه به، أو يمثل به، أو يقتل بالواحد اثنين أو أكثر، أو يقتل غير القاتل؛ كأن يُقتل الوالد بولده؛ وقد كان المشركون في الجاهلية إذا قَتَل الوضيع شريفا تركوه وقتلوا به شريف قومه. "السرف" الزيادة على ما عليه الحق في أي شيء(لا يخص الأموال) ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ ولي المقتول هو مُعانٌ بإثبات الله له حق القصاص، وبإعانة الحاكم له على تنفيذه؛ ولقد أكد الله هذا الحق بعد أن نهى عن السرف في القصاص(القتل)؛ وفي هذا تلميح إلى أن من تجاوز العدل في القصاص لا يُنصر.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ الخطاب موجه للأولياء القائمين على مال الأيتام بالإيصاء أو التوكيل؛ بمعنى لا تتصرفوا في مال اليتيم إلاّ بالطريقة المثلى التي هي أحسن لهم؛ وذلك باستثمار ذلك المال وتنميته وإخراج الزكاة منه والإنفاق عليه وفي تعليمه ونحو ذلك إلى أن يبلغ

[٣] أخرجه البخاري في كتاب الديات- باب قول الله تعالى: {أن النفس بالنفس} (٦٨٧٨)، ومسلم في كتاب القسامة- باب ما يباح به دم المسلم (١٦٧٦)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

اليتيم سن الرشد، فإذا بلغ وكان رشيداً فهو أولى بماله، ويحرم على غيره أن يقربه ولو بالتي هي أحسن إلاّ بإذنه، ويستثنى من ذلك إن كان اليتيم يتصرف في ماله بغير حكمة ويفسده فإنه يُمنع من ذلك، أما إذا بلغ ولم يرشد عقليا فلا يقرب ماله حتى يرشد.

بعد هذه النواهي الثلاثة يأتي أمر الله بثلاث؛ أولها: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ الآية أمر بالوفاء بالعهود ووجب ضمنها الوفاء بالعقود، ولقد جاءت بعد جملة من الأوامر والنواهي التي يُعدّ التزامها من مقتضى الوفاء بالعهد، والتعريف في ﴿الْعَهْدِ﴾ للجنس ويفيد الاستغراق؛ فيشمل كل ما بين الإنسان والله أو بينه والناس؛ أما "العقد" فهو ما يلتزمه الإنسان من التزامات مع نفسه أو مع الناس؛ كالنذور والأيمان والبيوع والإجارات والزواج، ويدخل في العهد عهدُ المسلمين النبيّ صلى الله عليه وسلم عند البيعة على الإيمان والنصرة. وحذف متعلق مسؤولا لأنه ظاهر؛ بمعنى: إن العهد كان مسؤولا عنه؛ أي إن الله سائل كل إنسان عن العهد الذي عاهد به؛ فإن كان موفيا به أثابه وإلا عاقبه. و"العهد" أمر عام. ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ في الآية أمر بالوفاء بالكيل مع إضافة "إذا" الظرفية الشرطية إلى الفعل "كِلْتُمْ" فهو بذلك يفيد تجدّد الأمر عند كل مباشرة للكيل وعدم التساهل في شيء من ذلك؛ ومن الوفاء بالكيل؛ الوزن بالقسطاس المستقيم المعتدل. "القسطاس" اسم لآلة الوزن(الميزان) ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ "ذلك" إشارة إلى الكيل الوافي والوزن القسط المقصودين من فعلي "كلتم، وزنوا" فهما خير-لحصول ثواب الامتثال بهما في الآخرة- و أفضل من التطفيف في الميزان الذي يُظن فيه خير الدنيا، وهما أيضا خير في الدنيا لحصول طمأنينة النفس عند الإنصاف أكثر منها عند الاستئثار بشيء من المال. والوفاء بالكيل والقسط في الميزان هما أحسن مآلا وأحسن عاقبة.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ لا تتبع ما لم تتحقق منه من فعل أو قول أو اعتقاد؛ سواء أكان ذلك تقليدا أم ظنًّا أم بهتانا؛ ومن ذلك: النهي عن الإشراك، وقول الزور، والقذف، والكذب، والتجسس، والافتاء بغير علم، وتكلّف الإنسان ما لا يعلمه؛ ولا يدخل في ذلك الظن السيء الذي يخطر على البال، بشرط ألا يُتْبع بعمل أو محاولة التحقق منه، لقول الرسول ﷺ:«إذا ظننت فلا تحقّق»[٤] ولا يدخل في ذلك أيضاً ظن السوء بمن كان من أهل السوء؛ فإنه يُظن بعامل الخير خيرا وبعامل الشر شرا؛ ما لم يتعلق الأمر بالزنى ونحوه أو الإشراك بالله فلا يجوز ظنهما في عامل الشر إذا لم تقم بيّنة شرعية بتلبسه بهما؛ لذلك فقد سُمي من لم يأت بأربعة شهود على زِنًى كاذبا حتى لو كان صادقا في واقع الأمر، و أيضا يُباح للمجتهد إصدار حكم بالقياس أو نحوه بالظنّ؛ لأنّ نتيجة اجتهاده تعدّ علما حتى لو كان ظنّيا. و"القفو" مشتق من "القفا" وهو ما وراء العنق؛ ويعني: الاتباع، ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ

[٤] رواه الربيع، ب: جامع الآداب، ر:٧٠١(٢/٢٧٨).

مَسْئُولًا﴾ الجملة تعليل للنهي عن اقتفاء المرء ما ليس له به علم؛ بمعنى: أنّ الإنسان سيحاسب بما سمع بسمعه وبما أبصر ببصره وبما اعتقد بقلبه؛ فإن خيرا فله عليه ثواب، وإن شرّا فله عليه عقاب؛ وأسند فعل المساءلة للحواس لأن الله سائلها يوم القيامة عما فعل بها صاحبها توبيخا له؛ قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[فصلت:٢٠] ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ ولم يُعيَّن المخاطَب في الآية ليعني كلّ من يسمع الخطاب فهو منهي عن المشي مرحا وكبرياء وشدة في وطء الأرض كمن يريد خرقها، وتطاولا في البدن كمن يريد أن يبلغ بطوله الجبال؛ وهذا تهكّم من هذا الفعل لأنه قد يؤدي بصاحبه إلى عكس ما قصد إليه؛ كما فُعل بقارون لمّا خرج في زينته وكبريائه فخسف الله به الأرض. و"المرح" شدة الفرح؛ وقصد به هنا الفرح المفضي إلى الكبر والخيلاء، وإسناد المرح إلى المشي مجاز عقلي، لأن الذي يمرح هو الشخص الماشي، و"الخرق" قطع الشيء والفصل بين الأديم؛ وخرق الأرض: قطع قشرة التراب.

﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ "ذلك" إشارة إلى كل ما ذكر من الأحكام الخمسة والعشرين؛ لأنه يلزم –بعد معرفتها- الإقلاع عما هو منها مفسدة أو جالب لمفسدة؛ فما كان منها أمرا حرُم الإتيان بضده، وما كان منها نهيا حرُم الإتيان به، وقُدّم الظرف "عند ربك" على "مكروها" لأهميته إذ أُضيف إلى اسم الجلالة، وفي إضافة "مكروها" تشنيع للفعل، وتعريض بأن فاعله مكروه عند الله. و"كل ذلك" هو نفسه السيئ والضمير في "سيئه" عائد إلى "كل ذلك" وإضافة السوء إلى ضميره "سيئه" إضافة بيانية تفيد قوة السوء فيما ذكر من المعاني الخمسة والعشرين ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ "ذلك" إشارة إلى ما ذُكر من الأحكام الخمسة والعشرين؛ في ثماني عشر آية ابتداءً من قوله: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ انتهاء إلى قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾ التي هي جزء من جملة ما أوحى الله إليك؛ وفي الآية تلميح إلى أن مثل هذه الحكمة لا يصل إليها أُمِّيٌّ إلاّ عن طريق الوحي، لذا كان لِزاما على النبي ﷺ أن يبلّغ هذا الوحي للناس. و"الحكمة" معرفة الحقائق على ماهي دون غلط ولا اشتباه. والخطاب هنا موجه للنبي ﷺ ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾ الجملة عطف على جمل النهي المتقدمة، وهي توكيد للنهي المتقدم في صدر هذه الأحكام عن الشرك بالله ﷻ؛ إذ هو مبدأ الأمر ومنتهاه، ورتّب عليه عاقبته في الدنيا وهي الذّمّ والخذلان؛ فلا عبرة بعمل من يعمل دون قصد وجه الله أو يعمل قاصدا بعمله غير الله ﷻ، أو مشركا غيره في قصده؛ لذلك فقد رتّب على النهي عن الشرك في ختام إيراد الأحكام عقاب الآخرة؛ بإلقاء المشرك في النار مهانا ملوما من قبل الله والملائكة ومن قبل نفسه . "الملوم" من يُنكر عليه فعلُه، " أي المطرود؛ وهو هنا المُبعَد من رحمة الله يوم القيامة.

٨. تنزيه الله تعالى عن الشريك والولد

﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَ اتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (٤٠) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤)﴾

لما نهى الله ﷻ عن الشرك في معرض بيانه مجموعة من الأحكام التي افتتحها بالنهي عن الشرك واختتمها به؛ جعل الآيات التالية إنكارا وتقريعا على من ينسب الولد إليه إذ هو أيضا من أعظم الشرك ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَ اتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾ الهمزة للاستفهام وهو استفهام إنكاري تهكمي بمعنى: أفضّلكم الله على نفسه واختاركم بالبنين وأخلصهم لكم و اتخذ لنفسه الملائكة إناثا وهن في أعينكم نو اقص معيبات تدفنونهن؟ وخصّص الله تحذيرهم بنسبة الملائكة إليه لأنهم لما نُهوا عن الشرك به نسبوا إليه الملائكة بناتٍ ليسوّغوا لأنفسهم إشراكه بها في العبادة، فنفى الأبناء عن نفسه لئلا يتوهموا بأنه سيرضى بها على أنها من ولده؛ فإبطاله كون الملائكة بناته هو إبطال لتسويغ عبادتهم لها؛ لأن المشركين بهذا يدركون أن عبادة الأصنام وعبادة الملائكة سواء ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ إنكم تقولون قولا عظيما في القبح –بقرينة الإنكار الذي سبقه- لتضمنه نسبة أحَطِّ نوعي البنوّة .في نظرهم. إلى الله مع استئثارهم بالنوع الأشرف، ولأن نسبة الولادة لله توجب تجسيمه؛ ومن ثَمَّ تجري عليه صفات الأجسام من نقص وحدوث وفناء، وفي تفضيل أنفسهم على الله و إثبات الولد له نفي للألوهية عنه ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ ولقد وضحنا وكررنا بوجوه مختلفة في القرآن من الأمثال والمواعظ والوعد والوعيد من أجل أن يتعظوا وينزجروا عن الشرك الذي هم فيه؛ فلم يزدهم هذا البيان والتوضيح إلاّ ابتعادا وإعراضا. والمفعول في "صرفنا" محذوف لنزول الفعل منزلة اللازم؛ أي صرفنا الكلام ليذكروا ببيانه. و"النفور" هروب الدابّة خشية الأذى؛ واستعيرهنا تشبيها لهم بالدواب، والتصريف: أصله تعدد الصرف وهو النقل من جهة إلى أخرى، ومنه تصريف الرياح، وهو هنا كناية عن التبيين بمختلف البيان ومتنوعه ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ قل للمشركين –أيها الرسول- لو كان مع الله آلهة أنداد استحقوا العبادة كما تزعمون؛ لسعوا إلى غلبته وقهره، أو –على الأقل- أن يتوسلوا إليه أن يقربهم قبل أن يقربوكم أنتم إليه زلفى. "ابتغوا" ذكرها بواو جماعة الذكور لأنها عند هؤلاء المشركين كالعقلاء من الذكور وإن سموها بأسماء مؤنثة. و"كما يقولون" بمعنى: كالذي يقولون، استعمال للموصول للتنبيه على الخطأ، وذو العرش بمعنى: صاحب العرش، والعرش: المُلْك أو ذلك المخلوق العظيم المسمى بالعرش، وإضافته سبحانه للعرش؛ لما

تتضمنه الإضافة إلى العرش من الشأن الجليل الذي هو مثار حسد الآلهة إياه، وطمعهم في انتزاع ملكه على المعنى الأول (الملك) أو طمعهم في الابتغاء من سعة ما عنده على المعنى الثاني: "المخلوق العظيم" ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ تنزه الله عن محذور الشرك الذي نسبوه إليه افتراء عليه، وبَعُدَ عنه بعدا عظيما وتعالى عنه علوا مطلقا؛ فهو واجب الوجود، و اتخاذُ الولد يوجب الفناء الموجبَ لسَبْق عدم متقدم، ووجود الولد صفة نقص، لأنه ينم عن ضعف. والفعل الناصب لـ "سبحانه" ماض بدليل الفعل "تعالى" بعده. وذَكَرَ هنا العلوّ -وهو أعلى مراتب البلاغة- بعد ذكر عنوانه "ذي العرش" ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ كل الكائنات تنزه الله تنزيها مقرونا بحمده والثناء عليه؛ تسبحه السموات ومن فيهن، والأرض ومن فيها من إنس وجنّ وجماد؛ فمنها من يسبح بلسان حقيق كالإنس والجن، ومنها ما يسبح بلسان الحال وهو ما لا لسان له، حتى أجسام الملائكة، وأجسام الإنس والجن ولو كانوا كفارا؛ فسبحان الذي ملأ السموات السبع والأرضين السبع عزة و وقارا، ويحتمل أن يكون تسبيح جميع المخلوقات حقيقيا، كل بحسب حاله وطبيعته، ولكن تعجز العقول عن إدراك حقيقة تسبيح غير العاقل لله، ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ لا تفهمون تسبيح مخلوقات الله ﷻ له والذي يدل عليه إذعانها له؛ لإعراضكم عن النظر فيها، ولعدم إقلاعكم عن اعتقاد ضدها من الشرك بالله ﷻ، ولعدم إعمال عقولكم لتهتدوا إلى ما يحف بها من آيات تدل على وحدانية الله وتنزهه عن الشّرك؛ ولولا أن الله حليم لعجل لكم العقوبة على شرككم والتي تستحقون التعجيل بها؛ فأمهلكم ليغفر لكم إن تبتم.

٩. إعراض المشركين عن القرآن الكريم

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٤٧) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٤٨)﴾

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا﴾ وإذا قرأت يا محمد ﷺ القرآن جعلنا بين الذين لا يؤمنون بالآخرة وبين ما تقرأ مانعا لهم عن فهمه فهم تدبر؛ لإعراضهم عنه وكراهتهم سماعه ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وجعلنا على قلوب هؤلاء المكذبين بالآخرة أغطية تمنعهم من فهم مدارك القرآن وأسراره عقابا لهم على أنهم صدقوه بالفطرة وصدوا أنفسهم عن سماعه، وجعلنا في آذانهم ثقلا عن السمع وصمما؛ فلا يسمعونه سماع انتفاع واهتداء به، قال ابن

عاشور: "وجَعْلُ اللهِ الحجاب المذكور: إيجادَ ذلك الصارف في نفوسهم بحيث يهمون ولا يفعلون، وذلك من خور الإرادة والعزيمة بحيث يخطر الخاطر في نفوسهم ثم لا يصممون، وتخطر معاني القرآن في أسماعهم ثم لا يتفهمون، وذلك خُلُق يسري إلى النفوس تدريجياً تغرسه في النفوس بادئ الأمر شهوةُ الإعراض وكراهية المسموع منه، ثم لا يلبث أن يصير ملكة في النفس لا تقدر على خلعه ولا تغييره"[٥] والأكنة: جمع كنان وهو الذي يغشى القلب ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ وإذا ذكرت الله ﷻ في القرآن عند قراءتك، دون ذكر آلهتهم فهموا من ذلك تعريضا بأن آلهتهم ليست بآلهة؛ لذلك كلما سمعوا ذكر الله وحده فيه رجعوا على أعقابهم نافرين منه؛ وقد أكد الله هروبهم منه بذكر الأدبار وذكر النفور، والنفور: العودة من حيث المجيء ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ اعلم يا محمدُ ﷺ بأنّا على علم بالغاية التي من أجلها يستمعون إلى تلاوتك القرآن؛ إنها الاستهزاء بآيات الله وترقب ما ينكرونه من التوحيد والبعث ليكذبوه، و افتتحت الآية بضمير الجلالة اعتناء بمضمونها، وفعل التفضيل "أعلم" يعني قوة العلم وتفضيله لا قوة علم الله على علم غيره، ونعلم نجواهم حين يستمعون إليك؛ فهم يتهامسون بأنك رجل أصابه الخبل وزال عقله بالسحر؛ واستعمل المصدر في بيان حال تناجيهم (نجوى) لكثرة تناجيهم حين استماعهم القرآن تشاغلا عنه ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ انظر يا محمد ﷺ متعجبا منهم كيف مثلوك بالمجنون والكاهن والساحر؛ جاهدين في صدّ الناس عن التصديق بنبوتك، فضلوا –بذلك- عن الحق ولم يجدوا إليه ولا إلى تصديق ما قالوه عنك سبيلا.

١٠. إنكار المشركين البعث والرد عليهم

﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢)﴾

بعد أن ذكر الله ضلالات المشركين في النبوات أورد شبهاتهم في البعث وردّ عليها وفنّدها ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ المشركون ينكرون البعث وهذا سؤال استنكاري تعجبي طرحوه؛ بمعنى: قالوا: أسنُبْعَثُ من جديد بعد أن نصير رفاتا بتحطم أجسامنا وصيرورتها كالتراب؟! وقد قدّم في الجملة الظرف لأن مضمونه هو دليلهم على استحالة أن يخلقوا بعد البِلى، وقوة الإنكار تظهر في

[٥] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٥، ص١١٦.

كونهم ترابا وعظامًا ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ أجبهم يا محمدﷺ: لو كنتم حجارة أو حديدا –وهي أبعد الأشياء إلى الحياة- أو أي شيء أشدّ صلابة فإن الله قادر على إحيائكم ثانية؛ إذ إن إعادة الحياة –في تصورنا- أهون على الله من الخلق بداية، والكل هين عليه سبحانه، ومقابلة الحجارة والحديد بالعظام والرفات مقابلة أجسام صلبة بأجسام واهية؛ بمعنى أن الله يستوي عنده إعادة الحياة إلى الأجسام الصلبة أو الأجسام الواهية في اليسر، ويكبر في صدوركم: أي يعظم عن قبول الحياة في اعتقادكم ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لمّا يسلِّم منكرو البعث جدلا بوقوعه، سيسألون تهكما و إنكارا: من سيعيدنا إلى الحياة بعد الممات؟ ولقد أمر الله رسوله أن يجيبهم –إبطالا للازم تهكمهم؛ حين يسألونه- بأن الذي خلقكم أول مرة سيعيدكم إلى الحياة؛ حملا لاستفهامهم على أنهم أرادوا حقيقة السؤال والاستفهام، وإجراء له على خلاف ما يريدون؛ بأسلوب حكيم فيه زيادة المحاجّة ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ وعند معرفتهم بقدرة الله على بعثهم سيهزون رؤوسهم سخرية واستهزاء مستبعدين وقوعه ويسألونك يا محمد ﷺ: متى يكون هذا البعث؟ فأجبهم: لا يبعد أن يكون قريبا؛ فكل آتٍ قريب مهما طال أجله؛ كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَراهُ قَرِيباً﴾ [المعارج ٧٠/ ٦-٧]. وينغضون رؤوسهم: يحركونها من أعلى إلى أسفل أو العكس ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يوم يدعوكم دعاء تكوينيا –و أنتم رفات- ؛ بخلقكم وبالنفخ في الصور يوم البعث؛ فتستجيبون مطاوعين منقادين لأمره؛ وهذا المجاز كناية عن قدرة الله في إحيائهم بسرعة حصول الدعوة والاستجابة لها، وتظنون أنكم لم تلبثوا في الدنيا إلاّ زمنا قليلا مقارنة بالمكث في الآخرة.

١١. محاورة المشركين بالحسنى وبيان سعة علم الله تعالى

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا (٥٣) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَ آتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (٥٥)﴾

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ لما أبطل الله الشرك بحجة يقينية و أثبت البعث والمعاد كذلك بحجة يقينية؛ أمر المسلمين أن يحاوروا المشركين ويجادلوهم باللين وبالطريقة التي هي أحسن؛ لئلا يشوب دعوتهم إلى التوحيد غلظة في القول أو سب وشتيمة؛ فيبادلوهم المعاملة نفسها وينفروا بذلك عن الدين ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ ذلك لأن الشيطان من خلال القول السيئ الخشن يوقع العداوة بين المؤمنين ويزيد الكافرين نفورا عن الإسلام؛ وعداوة الشيطان

للإنسان ظاهرة غير خفية فكيف يعقل به أن يتّبعه؟ وقول التي هي أحسن يقوي رابطة الأخوة بين المسلمين والتي هي تحقيق لمقصد من مقاصد الإسلام؛ وفي الآية تأديب لصون اللسان في كل ما يتلفظ به، وتربية للدعاة والمربين على اختيار القول الحسن اللين الذي يؤلف ولا ينفر. والنزغ: الطعن والضرب بسرعة؛ وهو هنا كناية عن سرعة انتشار العداوة بالقول السيئ ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ خطاب للمؤمنين وشمل الرسول ﷺ بمعنى؛ أن الله أعلم بأحوال العباد وما يليق بهم؛ فإن يشأ يهدهم للإيمان وإن يشأ يتركهم وشأنهم فلا يهتدون فيعذبون، وذلك وفق قوانين وضعها لهم فربما اتبعوها فكانت سببا لهدايتهم، وربما خالفوها فكان ذلك سببا لضلالهم. و افتتحت الآية بعنوان الربوبية تذكيرا بأن الاصطفاء للخير وللشر من معنى الربوبية، والله ﷻ أعلم بأحوال الناس، وهو أعلم بما يناسبهم من استحقاق الرحمة أو استحقاق العذاب ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ ثم خص الرسول بالخطاب مبينا له مهمته في التبليغ؛ إذ هي الدعوة والصبر على الأذى فحسب، وليست حمل الناس على الهداية والإيمان؛ وذلك رفعا للحرج عنه ولكيلا يأسى على من استمر على الضلال ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لما رفع الله عن الرسول ﷺ مهمة إلزام الناس بالإيمان أخبره بأنه أعلم بهم وبتفاضل بعضهم على بعض؛ وربك يا محمدﷺ أعلم بمن في السماوات والأرض من علمهم بأنفسهم، وهو أعلم بمن يصلح للنبوة وحمل الرسالة ولو يتيما فقيرا ؛ ردّا على قول المشركين: «هُوَ يَتِيمُ أَبِي طَالِبٍ و أَصحَابُهُ حُفَاةٌ عُرَاةٌ جُوَّعٌ لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا القرآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ»[٦] ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَ آتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ جعل الله لبعض الأنبياء تفاضلا على بعض حسب علمه وحكمته، وخصّ بعضهم بمزايا؛ خص إبراهيم عليه السلام بالخلة، وموسى عليه السلام بالكلام، وداود عليه السلام بكتاب الزبور، ومحمداﷺ بختم الرسالات. وخص نبيه داود عليه السلام بالذكر في الآية تلميحا لأفضلية محمدﷺ على باقي الرسل و أفضلية أمته على غيرها من الأمم؛ لأن في الزبور بشارة للمؤمنين بأنهم سيورثون الأرض وينصرون ولم تأت بشارة عامة للصالحين بهذا الإرث من قبل في الكتب السماوية قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء ١٠٥]. وبما أن المشركين استبعدوا نزول القرآن على محمد وهو يتيم فقير فقد ذُكر لهم نموذج لذلك وهو داود عليه السلام؛ فقد كان راعي غنم وكان ذا قوة في الرمي فاختير لقتال جالوت فقتله، ثم اصطفاه الله و آتاه النبوة وجعله ملِكا على بني إسرائيل ولم يكن ذا جاه وسيادة وكذلك فعل بمحمدﷺ.

[٦] امحمد اطفيش، تيسير التفسير، ج٨، ص١٩٧

١٢. بيان عجز الشركاء، والتكذيب بالمعجزات سبب للإهلاك

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَ آتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠)﴾

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ انتهازا لفرصة ذكر المقربين إلى الله حقّا جاءت الآية ردّا على عبدة غير الله ﷻ: من الملائكة والجن وعيسى ومريم وعزير زعما بأنها تقربهم إليه؛ قل يا محمد ﷺ لهؤلاء المشركين إن هؤلاء الذين تدعون من دون الله لا يملكون رفع الضر عنكم ولا تحويله عنكم إلى غيركم ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أولئك الذين تدَّعُونَهم آلهةً هم أنفسهم يدعون الله ويتقربون إليه، وأكثرهم قربا إليه أكثرهم دعاء وابتهالا له لزيادة القرب وطلب رضاه؛ فكيف يُدْعَوْنَ من دون الله ﷻ آلهة. و"الوسيلة" المرتبة العالية القريبة من عظيم الملك ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أولئك المقربون إلى الله ﷻ يأملون بعبادتهم رحمته ويخشون عذابه، فكيف يعبدون من دون الله؟!؛ وهنا إشارة إلى أدبهم مع الله فلم يحملهم قربهم إليه على الغرور؛ ولأن عذاب الله حقيق بأن يحذره كل أحد حتى الأنبياء والملائكة والمقربون ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ ما من قرية كافر أهلها ويكذِّبون رسلهم إلاّ وسيحل عليهم عذاب الله في الدنيا باستئصالهم أو بإذلالهم بالحروب والأسر والفتن، كلّ ذلك معلوم في علم الله مسطور في اللوح المحفوظ، وتأكيد وجود الإهلاك قبل يوم القيامة إنذار للمشركين.

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ اقترح المشركون على محمد ﷺ أن يأتيهم بمعجزات منها؛ تحويل جبل الصفا بمكة إلى ذهب فلم يجبهم الله ﷻ لذلك؛ لأنه جرت سنته بأن يستأصل القوم الذين رأوا الآيات ثم لم يؤمنوا، وقد حكم بإمهال كفار قريش، فلو أرسل عليهم الآيات ثم أصروا على الكفر بعد مجيء الآيات لأهلكهم، وقد قضى بإمهالهم، وقد يخرج من أصلابهم مؤمنون، فمعنى الآية على هذا. كما يقول الشيخ أطفيش.: {وما منعنا أن نرسل بالآيات} الدالات على رسالتك اللاتي اقترحتها قريش منك{إلا أن كذب بها الأولون} فيكذبون بها كما كذب بها الأولون المهلكون بالتكذيب ، فيستحقون الإهلاك كالأولين ﴿وَ آتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ وقد جعل الله

لقوم صالح الناقة آية مبصرة كما سألوا فازدادوا بذلك كفرا وقتلوها عقرا فأخذهم عذاب استأصلهم، ولقد أورد الله هذا المثال لأن ثمود عرب وهم أجداد قريش ويمرون على آثارهم بالشام، وما إرسال الله الآيات مع الرسل إلا ليخوف بها المشركين من العذاب؛ فإن كانت من اقتراحهم أهلكوا بعذاب مستأصل وعذبوا يوم القيامة، وإن لم تكن من اقتراحهم لم يعذبوا في الدنيا وعذبوا في الآخرة ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ تسلية للنبيﷺ على حزنه من تكذيب قومه أنزل الله عليه الآية؛ بمعنى: واذكر يا محمد ﷺ إذ قلنا لك إن الله أحاط بالناس علما وقدرة وهو غالبهم وسينصرك عليهم، وجَعْلُ لفظ الرّبّ مضافا إلى ضمير الرسول يومئ بسَوْق الكلام مساق تكريم النبي ﷺ وتصبيره والعناية به ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ يقول المفسرون إن الرؤيا التي أريها الرسولﷺ هي رؤيا عيان وهي الإسراء والمعراج ؛ قال ابن عباس: «هي رؤيا عين أريها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ليلة أسري به»[٧] وقد أراه فيها من العجائب الشيء الكثير وجعلها فتنة للناس ليظهر مؤمنهم من كافرهم. والشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم كما ذكر في بعض آي القرآن؛ وقد اتخذوها سخرية وتهكما، ورُوِيَ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ: «زَعَمَ صَاحِبُكُمْ أَنَّ نَارَ جَهَنَّمَ تَحْرِقُ الْحَجَرَ ثُمَّ يَقُولُ بِأَنَّ فِي النَّارِ شَجَرَةً لَا تَحْرِقُهَا النَّارُ»[٨].

١٣. استكبار إبليس عن السجود لآدم وعزمه على إغواء بنيه

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (٦٥)﴾

لما حدّث اللهﷻ رسولهﷺ عن قومه الكافرين المكابرين المعاندين ساق حديثا عن قصة آدم مع إبليس وأمرِ الله له بالسجود لآدم، وامتناعه عن الامتثال، ثم توعده بغواية بني آدم فكان هذا سببا لطغيان هؤلاء المشركين، وهذه القصة موعظة للناس أيضا، ففي جميع العصورفريق المؤمنين الممتثلين أمرالله وفريق العصاة أتباع الشيطان لينظركل عاقل إلى أين ينتمي ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ واذكريا محمدﷺ إذ أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تكريم

---

[٧] رواه البخاري من طريق ابن عباس، ك: تفسير القرآن، ب: سورة الإسراء، ر:٤٧١٦(٨٦/٦).

[٨] التحرير والتنوير(١٥/ ١٤٧)

وتحية، فامتثلوا رضا وفعلا إلاّ إبليس –وكان فيهم وإن لم يكن منهم، والأمر لهم أمر له بالتبع- امتنع عن السجود حسدا وكبرياء واحتقارا لآدم، وصرح بسبب امتناعه عن السجود وهو أن المسجود له خلق من طين وهو خلق من نار كما قال الله ﷻ حكاية عن إبليس:﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص ٣٨/ ٧٦] وقد سأل مستنكرا ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ بمعنى أيسجد العظيم للحقير؟! وقد جعل "طينا" حالا من الاسم الموصول لغلبة عنصر الطين في خلق آدم؛ وهذا زيادة في احتقاره ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وزيادة في احتقار آدم وتجرؤا على الله ﷻ توعد إبليس بأن لو أمهله الله ﷻ و أبقاه حيّا إلى يوم القيامة سيسعى في إضلال الناس وغو ايتهم ليكونوا من حزبه ملعونين مطرودين من رحمة الله؛ لكنه استثنى من عباد الله قلة منهم وهم المخلصون لله العبادة لا يقدر الشيطان على إغوائهم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ﴾ [الحجر ١٥/ ٤٢]. وأَرَأَيْتَكَ: تركيب يفتتح به الكلام الذي يراد الاهتمام به. ومعنى لاحتنكن: لاستأصلهم بالإهلاك في دينهم، كما يحتنك الجراد النبات أي يهلكه بالأكل منه، أو لأقودنهم حيث شئت، كما يحتنك الإنسان الدابة، أي يجعل اللجام أو الحبل أو نحوه فى حنكها فيقودها حيث شاء ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ و افق مرادَ إبليس قضاءُ الله ﷻ بأن يجعله عنصرا للإغواء؛ فقال له: امض فيما تريد من الإمهال إلى يوم القيامة والسعي في غو اية العباد؛ وتوعده و أتباعه بجهنم جزاء لهم غير منقوص على عصيان الله ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ﴾ أمر الله إبليس -لتحقيق مراده- أمر إهانة وتهديد بأن يجتهد في إغواء الناس باستخفاف من استطاع منهم وإزعاجهم بدعائه إياهم إلى المعصية، وبوسوسته لهم، وأن يجمع لهم من أجل إغوائهم رجاله وأعو انه؛ فقد أتاح له أن يجمع كل ما أوتي من وسائل الفتنة والوسوسة بتزيين المفاسد وتقبيح المصالح، ومشاركته إياهم في الأموال بجعلهم نصيبا منها للأصنام، وفي الأولاد بتزيينه لهم إنجابهم من الزنى ووأدهم وتسميتهم بعبدة الأصنام، ووَعدِهم الوعود الكاذبة؛ كالوعد بشفاعة الآلهة المزعومة يوم القيامة، والوعد بالغنى من المال الحرام، والوعد بالسعادة عند ارتكاب المعاصي والموبقات، والاغترار برحمة الله وبالتوبة من الذنوب ثمّ تسويفها، وصوتك: بدعائك إياهم إلى المعصية بالوسوسة ونحوها، قال بعض المفسرين: بصوتك بدعائك بالغناء والمزامير وكل ما يوصل إلى المعصية ،ومعنى أجلب: صِحْ فيهم صِياحاً شديداً ، والجلبة: الصوت، ومعنى بخيلك ورجلك: بأعو انك؛ من راكب وراجل (على رجليه)، وهذا مجاز، أي : افعل بهم جهدك، "وَرَجِلِك" قرأ حفصٌ بكسرِ الجيمِ، والباقون بسكونها ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وكل وعود الشيطان زائفة باطلة. ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ استثنى الله ﷻ من ذرية آدم فريقا لزموا عبادته دون إشراك فهم عباده وليس للشيطان أن يغويهم كما يفعل بغيرهم من ذرية آدم؛ وميزهم بوصف العبودية له، وأوضح

سبب عصمته لهم من الشيطان؛ لما وجه الخطاب للنبيﷺ ليطمئنه ويطمئن الإنسان؛ وهو لأنهم توكلوا على اللهﷻ واستعاذوا به من كيد الشيطان فحفظهم منه، وهذا يدل على أنه لا يعصم الإنسان من كيد الشيطان إلا اعتصامه بالله.

١٤. تكريم الله لبني آدم، وإعراضهم عن ربهم إلا عند الضّر

﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (٦٧) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩) وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا(٧٠)﴾

﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ربكم الرحيم بكم هو الذي ييسّر لكم أسباب العيش، إذ يسوق لكم السفن التي تقلّكم في البحر وتنقل متاعكم وبضاعتكم فتتيسر لكم بذلك التجارة وطلب الرزق، وهذا مِن فضله بكم ورحمته عليكم. ويزجي: يسوق ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ ومِن الدلائل الموصلة إلى استحقاقه الألوهية سبحانه أنّه إذا علا الموج في البحر فأصابتكم الشدة و أيقنتم الغرق؛ انقطعت عنكم جميع الأسباب وذهلتم عن كلّ من تعبدون وتدعون من دون الله، ولم يبق لكم إلّا الله سبحانه تستغيثونه لكشف الضر عنكم ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ فلمّا نجاكم مِن الغرق ووطئت أقدامكم البرّ تركتم عبادته والإخلاص له إلى غيره، وكان مِن طبع الإنسان كفران نعم الله عليه، والكفور صيغة مبالغة: أي كثير الكفر. ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ أفأمنتم أيها الناس مكر الله؟ هل اطمأنت نفوسكم إلى البّر فلم تخافوا أن يقلبه الله عليكم و أنتم فيه، والاستفهام إنكاري توبيخي، والخسف تزلزل الأرض وانهيارها، وفي هذا إشارة إلى سرعة إعراض الإنسان وكفر انه بمجرد زوال الضر عنه. ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ الحاصب: الريح التي ترمي بالحصباء وهي الحصى الصغيرة، أي هل أمنتم أن يمطركم بحجارة من السماء فتهلككم، ثم لا تجدوا مَن تكلون إليه أمركم فينقذكم من عذاب الله ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أم هل أمنتم يا مَن أنجاكم إلى البر فأعرضتم أن يعيدكم إلى البحر مرّة أخرى، ثم يرسل عليكم ريحا شديدة تقصف

سفنكم فتحطمها، فيغرقكم بسبب كفركم به وإعراضكم عنه، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ ثم لا تجدوا أحدا يطالبنا بالثّأر لكم مِن بعدكم.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ ولقد شرَّف الله ﷻ الإنسان، فأنعم عليه بنعمة العقل، وهداه السبيل، وخلقه في أحسن تقويم، وسخرّله ما في السماوات وما في الأرض ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ وسخّر له ما يحمله في البرّ من دوابَّ كالأنعام والخيل والبغال والحمير، ثم بتسخير ما ألهم إليه الإنسان مِن سيارات وقطارات وطائرات، وسخّر له مراكب البحر وسفنه ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ ورزقهم الله مِن لذيذ المطاعم والمشارب، وحَسَن الطِّيب والملابس ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ وفضّلهم على غيرهم مِن المخلوقات بالتّسخير والغلبة والعقل والتمييز والأجر والجزاء.

١٥. مجازاة كل إنسان على عمله، وكيد الكافرين للرسول صلى الله عليه وسلم

﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١) وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢) وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧)﴾

﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ واذكر يا رسول الله يوم القيامة الذي ندعو فيه كلَّ إنسان بمن ائتمّ به في الدنيا مِن نبي أو دين أو مُقدَّم مُتَّبَع، فيقال يا أتباع فلان، أو يا أتباع دين كذا أو كتاب كذا، وقيل: بإمامهم أي: بكتاب أعمالهم التي عملوها في الدنيا، ومِن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، ومما يرجّح هذا قول الله تعالى بعد ذلك: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ فمن أُعطي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤونه بفرح واستبشار لما وجدوه فيه مِن قبول الأعمال وتكفير السيّئات ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ولا ينقص لهم من ثواب أعمالهم شيئا يسيرا ولو كان فتيلا، والفتيل الخيط الرقيق في شقّ النواة ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ومن كان في هذه الحياة صادًّا عن الحق متعاميا عن النور الذي أنزل الله وعن بيّناته و آياته؛ فإنّه في الآخرة أشدّ عمى، لأنّ عمى الدنيا يمكن تداركه، أمّا عمى الآخرة فلا سبيل معه إلى النّجاة ولا اهتداء فيه إلى الخلاص، وفي الآية جناس تام بين أعمى الأولى وأعمى الثانية، والأولى مجاز؛ لأن المراد عمى البصيرة بالإعراض عن الحق ولو كانت عيونهم مبصرة، أما عمى الآخرة فهو مجاز أيضا: أي لا يرى طريق النجاة ولا يسلكه حتى يقع في

جهنم، ولا يبعد أن يكون عميه في الآخرة حقيقياً عقوبة له؛ لهذه الآية، ولقوله تعالى: ﴿ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ وإن قارب كفّار مكّة في ظنهم أن يخدعوك ويصرفوك عمّا أوحينا إليك لتختلق علينا غير ما أوحينا إليك وتبدّل فيه ﴿وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ ولو فعلت ذلك و اتّبعت مرادهم لاتّخذوك صديقا وليًّا لهم ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ ولولا تثبيتنا لك وعصمتنا إياك لقاربت أن تستجيب لهم ولو شيئا يسيرا لكثرة إلحاحهم واحتيالهم، ولكن العناية الربانية منعت ذلك، و"لولا" حرف امتناع لوجود، فامتناع الركون كان لتثبيت الله لك، والركون الميل بالجانب مِن الجسم، واستُعمِل في المو افقة ﴿إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ ولو فعلت ذلك –جدلا و افتراضا- لضاعفنا لك العذاب في الدنيا وفي الآخرة لأنّ مكانتك وقدرك عند ربك لا يستقيم معه أن تخالف أمره، ولا تجد أحدا ينصرك ويرد عنك عقوبة ربك ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ كما قارب الكفار بإزعاجهم وعداوتهم لك أن يخرجوك من أرض مكة، ولو فعلوا ذلك لا يبقون بعدك فيها إلّا زمنا يسيرا فإنّ الله سيهلكهم بعذاب مِن عنده، قال قتادة: "وقد همَّ أهلُ مكة بإخراج النّبي صلى الله عليه وسلم من مكة، ولو فعلوا ذلك لما تَوطَّنُوا، ولكن الله كفَّهم عن إخراجِه حتّى أمره"[٩] ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ وهذه سنة الله في الأقوام التي أخرجت الرّسل مِن بين ظهر انيها، إذ لا يلبث أن يأتيها العذاب، وإرادة الله وسنّته لا تتبدل ولا تتحوّل.

١٦. وصايا للرسول صلى الله عليه وسلم و إنزال القرآن رحمة وشفاء للمؤمنين

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (٧٩) وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢)﴾

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ أيها الرسول أدِّ الصلاة التي افترضها الله عليك أداءً تامَّ الأركان مستوفي الشروط، فهي التي تصل العبد بخالقه، والأمر للنّبي ﷺ ولأمته، أدِّ هذه الصلاة مِن مَيَلان الشمس وزوالها عن كبد السماء إلى إقبال الليل واجتماع ظلمته وسواده، ويدخل في هذا الوقت أربع صلوات مفروضة وهي: الظهر والعصر والمغرب والعشاء ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ وأدِّ صلاة الفجر وأطل قراءة القرآن فيها، إنّ صلاة الفجر تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، فعن أبي

[٩] تفسير الطبري، (١٩/١٥).

هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (يتعاقب عليكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فيجتمعون في صلاة الفجر، فتعرج الملائكة الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، و أتيناهم وهم يصلون)[١٠] ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ الهجود: النوم بالليل، والتهجد: ترك هذا النوم، أي وَقُم في سكون الليل واعمد إلى القرآن وصلِّ لله به زيادة لك على الصلوات المفروضة عسى أن يجعلك الله في موضع يحمدك ويغبطك عليه الأولون والآخرون، وفي هذا رفعٌ لقدره وتشريفٌ له على خلقه، وعسى من الله الكريم إطماع محقّق الوقوع متى توفرت أسبابه وقد أتى ﷺ بهذه الأسباب فالله تعالى منجزه ما وعدَه، والمفسرون على أنّ المقام المحمود مقام الشفاعة العظمى التي أكرم الله بها نبيّه محمدا ﷺ لبدء الحساب يوم القيامة، فقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال فيه: (هو المقام الذي أشفع لأمتي فيه)[١١]. ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ وقل يا محمد: ربِّ أدخلني في قبري إدخالا حسنا و أنت راض عني، وأخرجني منه إخراجا حسنا و أنا آمن من فزع يوم القيامة، وإلى هذا ذهب ابن عباس، وقيل نزلت الآية بمناسبة أمر الله تعالى لنبيه بالهجرة إلى المدينة فيكون المراد: دخول المدينة لإقامة دولة الإسلام بها، والخروج من مكة حين تآمر المشركون على قتله، ولعل الأنسب أن يكون هذا شاملا لكل مدخل يلتمس فيه النبي ﷺ مِن الله خيرا، وكل مخرج يرجو فيه ﷺ من ربه أن يجعل عاقبته سلامة ورشدا، والمؤمنون تبعٌ له في ذلك ﷺ ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ وهب لي من لدنك حجّة دامغة أذود بها عن الإسلام، وقوّة تنصرني بها على أعدائك، وملكا تعزّ به دينك، فالسلطان لفظ مشترك يراد به الحجة والقوة والملك ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ وقل جاء الحق وهو الإسلام وأزال بنوره ظلام الباطل وضلال الجاهلية، إن الباطل وإن كانت له صولة إلّا أنّه سيزول ويضمحل ولا يثبت أمام نور الحق إذا ما سطع، وقد روي أن النبي ﷺ دخل مكة وحول البيت ستون وثلاث مئة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول:﴿جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا﴾[١٢]. ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ "مِن" لبيان الجنس، أي و أنزلنا هذا القرآن شفاءً لما في الصدور مِن أدواء الجاهلية والضلال والجهل والشك، ومُذهبا لأمراض النفوس مِن عجب وكبر ورياء وحسد، فهو بذلك شفاء محقّق الوقوع، لا مجرد دواء قد ينفع وقد يضر، كما أنزل الله هذا القرآن رحمة للمؤمنين لما فيه مِن الحكمة والهداية إلى خيري الدنيا والآخرة، وشفاءُ القرآن ورحمته إنّما خصّ الله بهما عبادَه المؤمنين

---

[١٠] رواه الربيع من طريق ابن عباس، باب: في فضل الصلاة وخشوعها، رقم: ٢٧٥.

[١١] رواه أحمد من طريق أبي هريرة، ك: المكثرين من الصحابة، ب: مسند أبي هريرة، ر: ٩٦٨٥، (١٥/٤٢٨).

[١٢] رواه البخاري من طريق ابن مسعود، ك: المظالم والغصب، ب: هل تكسر الدنان التي فيها الخمر، ر:٢٤٧٨(٣/١٣٦).

به ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ ولا يزيد هذا القرآن الذين ظلموا أنفسهم فكفروا به إلا بُعدا عن نور هداياته و إيغالا في ظلمات الضلال.

١٧. الإنسان عند النعمة وعند الضر، وسؤال عن الروح

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (٨٤) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥)﴾

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ وإذا تَفَضل اللهُ بِنِعَمِهِ المادية والمعنوية على عبده الجاحد الغافِلِ عن ذكرربه، وَلَّى واستنكف عن عبادة ربه، ونأى بجانبه، والنَّأْيُ: البُعْدُ، والجانِبُ: الجِهَةُ اليمنى أو اليسرى من الجسد، والمعنى: مُبْعدا جانِبَهُ تَكَبُّرًا وبَطَرًا، والفعل "نَأَى" تأكيد للإعراض؛ لأن المُعْرِضَ يلْوِي وجهَه ويُدِيرُ جنبه، والنِّعمة إذا لم يصاحبها استشعارُ المُنْعِمِ، هَوَتْ بالإنسان من مقام الشكر والعرفان إلى مقام الكفر والطغيان، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ وإذا مسه ضُرٌّ أو مصيبةٌ أو إساءةٌ لم يلتجئ إلى خالقه ليعلن توبته، ويثوب إلى رشده، بل يبقى حائرا كئيبا ضَيِّقَ الصدر، يتخبط في أمره خَبْطَ عشواء، وَ"يَؤُوسًا" صيغة مبالغة؛ دالة على قوة اليأس والتذمر، ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ الشاكلة: الطريقةُ والسيرةُ التي اعتادَهَا صاحبُهَا ونَشَأَ عَلَيْهَا، والتنوين في "كُلٌّ" عِوَضٌ عن كل أحدٍ شملتْهُ العمومات السالفة كقوله: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ [الإسراء:٧٢] وقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢] وقوله: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ [الإسراء:٨٣]، أي: قل لهم يا محمد بعد بيانك لهم طريق الهداية والضلال، وسبيل الرحمة بالقرآن وسبيل الخسارة بالقرآن، وحال الإنسان الغافل بعد الإنعام عليه، كُلٌّ يعمل على طريقته التي اعتاد عليها وألفها، طريق الخير أو طريق الشر، ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ فإلهكم الذي رباكم وأحسن إليكم أعلم بمن طريقَتُهُ أرشدُ وأجدَى في الاهتداء والاستقامة، والآيةُ هذه ترشدنا إلى ابتغاء أفضل السبل وأحسن الاختيارات للوصول إلى مقام الهداية والتقوى، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ الرُّوحُ: يُطْلَقُ على الموجود الخَفِيّ المنتشر في سائر الجسد الإنساني الذي دلت عليه آثاره من الإدراك والتفكير والإحساس، والمسؤول هنا هو ماهية الروح وحقيقتها لدى الإنسان، لا السؤال عن حقيقة المَلَكِ جبريل المسمى رُوحًا؛ لأن الثابت في الأخبار أن اليهود سألوا عن حقيقتها المخفية، والجوابُ عن السؤال لم يكن بيانا لماهيتها، بل كان تصريفا للسائلين عن استعلامهم إلى جعلِهَا -أي الروح- من العلم الذي اخْتَصَّ به الله، فيكون "أَمْرِ رَبِّي" بمعنى: شأنه، أي أمر من أمور الله، ﴿وَمَا

أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ والجملة يجوز أن تكون من القول الذي أمر به الرسول ﷺ أو تذييلا جاء تعليقا على السؤال، والمعنى: ما حصلتموه من المعارف والعلوم لهو نزرٌ يسيرٌ أمام وُسْعِ عِلْمِ إلهِكُم ومُدَبِّر أمركم، والدليل الواضح على محدودية علمكم جهلكم بحقيقة الروح المنتشرة في أجسادكم، فالله تعالى لم يُطْلِعْ عبادَهُ على علمِه الواسع إلا بما شاء، وقد شاء أن يكون علمه مطلقا، وعلم الإنسان مقيدا محدودا.

رحمة الله بإنزال القرآن، وعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله

﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (٨٧) قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩)﴾

بعدما كان الكلام حول نعمة القرآن الكريم و أثرها العظيم على النفوس المؤمنة، ووبالها على النفوس الظالمة، في قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ...﴾ [الإسراء: ٨٢]، وَفِي محدودية علم الإنسان مقابل علم الله تعالى، ذَكَّرَ المؤمنين بِقَدْرٍ من أثر علمه، وهو القرآن الكريم الذي بين أيديهم، دفعا لهم لاستشعار فَضْلِ مُنْزِلِهِ عَلَيْهِم وَشُكْرِ نعمته، فكما أنه تعالى منحهم نعمة القرآن ووعدهم بحفظها، فهو قادر على سلبها متى شاء، لئلا يُفْضِي بهم ذلك إلى غرور النفس، والانخداع بقدراتهم ومواهبهم في الحفظ.

﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الخطاب موجه إلى النبي محمد ﷺ، لئن شئنا يا محمد أن نذهب بالقرآن الموحى إليك، فترفع نعمته عنك وعن المؤمنين، وتفقدون النور الذي تستضيئون به في الظلمات لَفَعَلْنا، وَعُبِّرَ بالذهاب به، وهو أبلغ من الإذهاب، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ "ثُمَّ" للترتيب، لأن نفي الطمع في رد المسلوب أشد على النفس من سلبه، و"بِهِ" تفيد التعهد والمطالبة، "عَلَيْنَا" بمعنى الغلبة والاستيلاء، والمعنى: بعد رفع الوحي المنزل عليك، لا تجد وكيلا تطالبه فيتعهد إليك برد القرآن، ثُمَّ يتمكن علينا، ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ استثناء منقطع، بمعنى: لكن، أو بل، أي: لكن رحمةً من ربك يا محمد أبقيناه بينكم إلى قيام الساعة، فكما أننا مَنَنَّا بإنزاله، تفضلنا بإبقائه وحفظه، ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ جملةٌ في موقع التعليل للاستثناء المنقطع، والمعنى: فَضْلُنَا عليك يا محمد كان كبيرا، كاصطفائِكَ، وجَعْلِكَ خاتِمَ الأنبياء والمرسلين وغيرها من العطايا، فلا نحرمك فضل القرآن الكريم و إبقائه بين يديك، ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ والآية تقرير لقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ والتقدير: لو رُفِعَ القرآنُ الكريمُ عنكم فلن يقدر الإنس والجن مجتمعين على الإتيان بقرآن مثله، وهي أيضا تحد وإعجاز لمنكريه، والمعنى: قل يا محمد للكافرين بمعجزة القرآن: لو اجتمعت كلمة الإنس والجن على ابتكار قرآن يضاهي هذا القرآن الذي أنزله الله عليك

في فصاحته وبلاغته ومعانيه وتشريعاته وغيبياته وأدبياته، ما قدروا عليه، واللام في (لئن): موطئة للقسم، وجواب القسم: لا يأتون، وجرد الجواب من اللام، لكراهية التقاء اللامين -لام القسم ولا النافية-، والاجتماع: الاتفاق و اتحاد الرأي، ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ ذكر قبلا الاجتماع في الرأي، وهنا أضاف شرط التعاون، الظهير: المعين، والمعنى: ولو كان الإنس والجن متعاونين، لما أتوا بقرآن مثله، فكيف بهم إذا حاولوا متفرقين. فبعد أن تحدى الله منكري القرآن، تطاول عليهم بضرب وجه من وجوه إعجازه، وهو تضمنه الأمثال؛ وفيه نعي عليهم لحرمان أنفسهم من الانتفاعَ بالقرآن الكريم، ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ التصريف: التنويع وإعادة العرض بأوجه مختلفة، وبما أن القرآن الكريم يخاطب عقولا مختلفة وطبائع متغايرة، كان من خصائصه التصريف ليناسب جميع مستويات العباد، فترى يعرض القضية الواحدة بأساليب مختلفة وفي أماكن متعددة، وقوله: "مِنْ كُلِّ مَثَلٍ" من كل معنى، كالمثل في غرابته وحسنه، ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ ومع ذلك التنويع في العرض و إقامة الأدلة والبراهين الصحيحة، أبى أكثرية الناس إلا أن يمكثوا في دائرة الكفر الاعتقادي والكفر العملي، قال تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: ١٧].

١٨. طلب المشركين المعجزات عنادا واستكبارا

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (٩٣)﴾

أنزل الله تعالى آيته القرآنية المعجزة على رسوله دليلا واضحا على نبوته وبعثته، وتحدى قومه بالإتيان بمثله أو بعضه، فأعجزهم عن ذلك كله، إلا أنهم لم يستسلموا طواعية للحق الإلهي ما دامت قرائحهم لم تنجز عملا يضاهي مرتبة القرآن الكريم، واستمروا في عنادهم فتطاولوا على النبيّ بمطالبته بنوع محدد من الآيات المادية المحسوسة، وقالوا لن نؤمن بالقرآن إلا إذا تحقق ما طلبناه منه، وهذا المقطع يحوي جملة المقترحات التي تلقاها النبي ﷺ، والرد الإلهي الحاسم عليها.

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ التفجير: صيغة مبالغة من الفجر، وهو الشق باتساع، والينبوع: اسم للعين الكثيرة النبع التي لا ينضب ماؤها، وقرأ الجمهور: تُفَجِّرَ، بضم التاء وتشديد الجيم المكسورة، عَلَّقَ المعاندون المستكبرون استجابتَهم و إيمانهم بالرسول محمد وما أُنْزِلَ عليه، بحصول أحد الشروط التالية؛ لأن "أَوْ" للتخيير: الشرط الأول: يفجر لهم محمد من الأرض

القاحلة يَنْبُوعَ ماءٍ، ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ الشرط الثاني: تملّكُ محمدٍ جنةً من نخيل وعِنَبٍ، يفجر الأنهار بين أشجارها تفجيرا، وشرطوا له امتلاكها، لأنه قد يُعِدُّ لهم جنة ولكنها ملك لغيره، لا نصيب له فيها، ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ الشرط الثالث: وينتقلون به من الآيات التي فيها منفعتهم إلى المطالبة بآية فيها إيذاؤهم، وَ"الكِسَفُ" جمعُ كِسْفَةٍ، وهي القطعة من الشيء، ومعناها في الآية: كُتَلًا من الأجرام السماوية، "كَمَا زَعَمْتَ" لأنهم عنوا بهذا الشرط قوله تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [سبأ: ٩]، والمعنى: إذا كان عذابُ ربّكَ حَقّا فأنزل علينا قطعا حجرية من السماء، ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ الشرط الرابع: أن يأتينا محمد بالله والملائكة فَنُعَايِنَهُمْ، والقَبِيلُ: المقابِلُ والشهيد، أو بمعنى: الكفيل؛ أي كفيلا ضَامِنًا الإتيان بهما، ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ﴾ الشرط الخامس: أن يملك بيتا من ذهب؛ لا حجرة فيه ولا طين، الزُّخْرُفُ: الذهب، ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ﴾ الشرط السادس: أن يصعد ويرتفع مُحَمَّدٌ في السماء، وَعُدِّيَ الارتقاءُ بِـ: "فِي" الظرفية، إشارةٌ إلى أن الرقي تدرج في السماوات كمن يصعد في السلم، ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ وتفننوا في شرطهم السادس بتعليقه بشرط آخر؛ أي أنهم لن يؤمنوا لرقيه حتى ينزل عليهم كتابا من السماء يقرؤونه، يثبت لهم في طياته حقيقة بلوغه السماء، أو كتابا آخر غير القرآن ينزل عليهم دفعة واحدة، لأن فكرةَ التَّنْجِيم عارضوها في شأن القرآن الكريم لاحتمال إنشائه من قبل محمد بين الحين والآخر. والحاصل ستة مطالب قدمها المشركون للنبي محمد، وقالوا لا إيمان إلا بعد إنجازواحدٍ منها، لكن أجابهم الله جوابا قارعا على لسان رسوله يكشف طغيانهم ويبدد عنادهم بقوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ قل لهم يا محمد متعجبا من صنيع كفرهم وجحودهم: "سُبْحَانَ رَبِّي" والمعنى: الخلق والقدرة المطلقة صفتان لله وحده، لا يمكن أن أنازعه في صفاته وكمالاته، وما أنا إلا بشر مثلكم ضعيف عاجز، بعثني إليكم رسولا أبلغكم ما أمرني به، فلم هذا العناد والتعالي؟ ونوع الاستفهام في "هَلْ كُنْتُ ..." استنكاري، لا يُطْلَبُ بعده الجوابُ.

١٩. دحض المشركين الحق بالشبه والرد عليهم

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (٩٥) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا

كُفُورًا (٩٩) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (١٠٠)﴾

بعد تعليق المشركين إيمانَهم بشرط أن تُنْجَزَ لهم إحدى الخوارق التي اختلقوها من عند أنفسهم استكبارا عن الحق، وتعجيزا للرسول محمد ﷺ، وتفنيد هذه المطالب بإثبات أن النبي محمدا صلى الله عليه وسلم بشر لا رب يملك ويتصرف في ملكه كما يشاء، يبين الله لنا السبب الأساسي في إنكار نبوة محمدﷺ، وهو استبعادهم كون النبي بشرا مثلهم!، وهذه شبهة تمسك بها كل أقوام الرسل السابقين، فنقض الله ادعاءهم واجتث شبهتهم من جذورها، وعرض عليهم قانون الاهتداء والإضلال، ثم تمادوا في جحودهم فأنكروا مسألة البعث، فأقام لهم الدليل الوافي للبرهان على إمكانها.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ وما مَنَعَ جميعَ الناس على مَرِّ العُصُورِ من الإيمَانِ بهدى ربهم، إلا اسْتِغْرَابُهُم مجيءَ الوحي الإلهي عن طريقِ بَشَرٍ مثلِهم، فأزال الله عنهم آثار تعجبهم بقوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ قل لهم يا محمد: على حسب طبيعة المُرْسَل إليهم، يَكُونُ جِنْسُ مُبَلِّغِ الرِّسَالة، ليتمكن ذلك المبلغ من إبلاغ رسالته، ومعاشرة من يخاطبهم في أمور دينهم ودنياهم، فلو كان من على الأرض ملائكة لهم مشية كمشيتكم، واطمئنان في الأرض أي قدرة على الإقامة فيها، لأنزَلَ الله عليهم ملكا رسولا من جنس الملائكة، كما أنزل إليكم بشرا من جنسكم، إذا فلا غرابة في كون محمد رسولا بشرا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، ثم قل لهم أيضا يا محمد بعد إقامة الحجة الدامغة: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾كفاني الله شاهدا بيني وبينكم، يعلم المحق من المبطل، فلو كان ما أدعيه كذبا لانتقم مني، وإن كان صدقا نصرني ومكنني، وستنبلج حقيقةُ أَمْرِي وأَمْرِكُم، بظهور المنتصر والمهزوم بعد ردح من الزمن، إن بقيتم على ضلالكم وتعنتكم، ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ فاخشوا ربكم إنه فوق عباده خَبِير يعلمُ دقائق أمرهم ونياتهم، بصيرٌ لا تغيب عنه لحظة من لحظات تفكيرهم ومعاشهم وحِلِّهِم وتَرْحَالهم، ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ تسليةٌ للنبي محمد ﷺ، بألّا يبخع نفسه من شدة تأسفه بالمعاندين المستكبرين، فمن أعمل عقله وطرق أبواب الهداية واستجاب لنداء الإيمان فهداه الله فهو مهتدٍ، تشمله الرعاية الإلهية من كل جانب، وفائدة الإخبار بـ: "فَهُوَ المُهْتَدِ" توطئة لذكر مقابله "فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ" كَمَا يُقَالُ من عرفني فقد عرفني، ولم يعرفني فأنا فلان ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ ومَنْ ابتغى طريق الضلال والكفر وأعرض عن ربه أَضَلَّهُ الله ضلالا بعيدا، ولن تجد لهم يا محمد متولين من دون الله يهدونهم من الضلال إلى الرشاد، أو "أَوْلِيَاءَ" بمعنى أنصارا يدفعون عنهم عذاب الإعراض والكفران حين وقوعه دنيا وأخرى، وذكر الله صورة من عقابهم يوم القيامة فقال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى

وُجُوهِهِمْ﴾ وسيكون جزاء المعرضين المستنكفين عن عبادة ربهم يوم القيامة حشرهم على وجوههم، ولمَّا استدعى الحشر المشي، عُدِّيَ بِـ: (عَلَى) ليتضمنه، والمشيُ على الوجوه دلالة على التشويه والإهانة والتحقير، ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ الكيفيات التي يحشرون بها: العُمْيُ: عدم إبصار طريق النجاة في الآخرة وأحوالِهِ ومَنْ عليْهِ مِنَ السُّعَدَاء، البُكْمُ: عدم النطق والإفصاح: لتَتَكَلَّمَ جوارحُهم وجُلُودُهم بدلًا منهم، الصَّمَمُ: عدمُ السَّمَاع، أي لما كانوا معطلين حواسهم عن الانتفاع ببركات القرآن الكريم في الدنيا، عوقبوا بالحرمان منها معاملةً بالمثل، فإن قيل: كيف نجمع بين هذه الآية وبين قوله: ﴿ من بعثنا من مرقدنا﴾ فهذا تكلم؟ فيجاب: بأنهم يحشرون بُكْمًا فإذا خرجوا تكلموا وكذلك في السماع ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ خبت النار: نَقُصَ تَهَيُّجُهَا، السعير: لهب النار، أي: وبعد الحشر يكون مثوى هؤلاء الأشقياء جهنم، وكلما سَكَنَ لهيبُ نار أجسادهم وبلغَتْ حَدَّ الخُمُودِ، أَجَّجَ اللهُ عليهم نارها، واشتدَّ سعيرُهَا. إلا أَنَّ الملاحظ في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ [البقرة: ٨٦]، يجعلنا نفهم أن عذابَ جهنم لا يضعف ولا يقل، دائما في وتيرة واحدة، فإذا كيف التوفيق بين نقصان اللهيب وعدم تخفيف العذاب؟ والجواب: أن آية الإسراء يقصد بها لهيب الأجساد، لا لهيب جهنم الكلي، لأن الأجساد إذا أحرقتها النار يزول لهيبها، وبعد إعادة هيئات أجسادهم ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] يُسْتَعَادُ التأجُّجُ كما كان، ولهذا سلطت زيادة السعير على ضمير الأشقياء "زِدْنَاهُمْ"، ولم يقل زدناها سعيرا، ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ "ذَلِكَ" إشارة إلى ما سَيُفْعَلُ بهم في أرض المحشر ودار جهنم مِنَ العذاب، أي ذلك جزاءٌ وِفَاقٌ لأنهم كفروا بآيات الله اعتقادا وعملا، والكفر: التغطية، والكافر بالدين كله أو بعضه أو جزء يسير منه سواءٌ في القرآن الكريم، فالإنسان في زمرة الشاكرين، أو زمرة الكفرة، فلا منزلة بينهما، ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ومن أنواع كُفْرِهِمْ بآيات الله إنكارُهُم مسألةَ البعث واستبعادُ وُقُوعِها، فقالوا باستفهام استنكاري: أَإِذَا أكلتنا الأرض وَصِرْنَا بَقَايَا عِظَامٍ وَرُفَاتٍ، أإنا لمبعوثون خلقا جديدا؟ والملاحظ هنا معاملةُ اللهِ بالمثل؛ فكما كذبوا بالإعادَة بعد الإفناء عاقبهم بتجدد أجسامهم بعد التبدد لكن من غير موت، فرد الله عليهم باستفهام استنكاري أيضا فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ الرؤية هنا بمعنى العلم، أولم يَعْلَمُوا أَنَّ الله الذي خلق المخلوق الأكبر منهم والأعظم، قَادِرٌ على أن يخلقهم مرة ثانية في هيئة مماثلة لهيئتهم الأولى؟، وَأَنْكَرَ عليهم ذلك لأنهم يدركون يقينيا عظمَ السماوات والأرض وقدرةَ خالقها ومع ذلك يستعظمون إمكانَ بَعْثِهِم في خلق جديد، رغم أن الأعجبَ هو الأول لا الثاني، والآية استدلت على مسألة البعث بقياس التمثيل في الإمكان؛ أي: إذا أمكن شيء في مستوى ما، فمن المعقول إمكان ما دونه، وهو دليل عقلي محض، ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ والجملة معطوفةٌ عَلَى "أَوَلَمْ يَرَوْا" لتَؤُول بمعنى: قد، أَيْ: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ ... وَقَدْ جَعَلَ لَهُمْ ...)، وهي بمنزلة

استدلال ثان على إمكان وقوع البعث، فما دامت حياتهم منتهية بأجلٍ مُحَدَّدٍ لا ريب فيه، لا يعلمه إلا الله، فإن الذي أَوْقَفَ حياتَهم الأولَى سيعيدُهُم إلى حياة أخرى، وإلا لما أفناهم بعد إحيائهم، لأن مِنَ الحكمة في عُرْفِ العقول أن يحرص الموجد على إبقاء الشيء لا على إفنائه، وكذا إذا امتلأت الحياة الأولى بالظلم والنزاعات والحروب فمن الضروري وجود حياة ثانية يشيع فيها العدل والحق، ويعاقب فيها الظالم ويؤجر فيها الصالح، ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ رغم ما اتضَّحَ عندهم من الدلائل القاطعات والحجج النيرات، لكنهم أبوا إلا جحودا وَتَعَنُّتًا، وقد انصَرَفَ وصْفُهم في الآية من الكفر إلى الظلم، لكونهم ظلموا أنفسهم فعَرَّضُوها لسخطِ الله وعقَابِهِ في الدنيا والآخرة ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ الكلام استئناف لتكملة الرد على المطالب الستة المقترحة من قِبَلِ المشركين ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا ... حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ ومعناه: لو سُلِّمَتْ لكم مقاليد خزائن رحمة الله، من الأقدار والأرزاق والمُقَدَّرَات، لبخلتم بها، خشية عاقبة الإنفاق وهي نقص الملك والخوف من زواله، ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ وطبيعة جنس الإنسان القَتْرُ؛ وهي البخل والتضييق في الإنفاق، والتقي معصوم من ذلك لقوله تعالى: ﴿... وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ ...﴾ [المعارج: ٢١، ٢٢]، وفحوى الرد: لَوْ أَنْزَلْنَا عليكُم الآيات التي اقترحتموها من خزائِنِنَا الواسعة، ستبخلون علينا بالإيمان والاستسلام لأمرنا، والدليل على ذلك عدمُ إيمانِ من سبقكم من قوم موسى لَمَّا أنزل الله عليهم الآيات التسع، فَهُم بتسع آيات لم يؤمنوا فكيف تؤمنون أنتم بست؟ وهذا ما ستوضحه الآيات الآتية.

٢٠. نبي الله موسى عليه السلام مع فرعون وإهلاك الظالمين

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (١٠٦) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩)﴾

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ ولقد أمددنا نبينا موسى بتسع آيات واضحات شاهدات على صدق رسالته، والآيات الخمس باتفاق المفسرين هي في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ [الأعراف: ١٣٣]، والباقيات فيهن اختلاف؛ وهن من باقي

الآيات (الإحدى عشرة) التي شهدها بنو إسرائيل؛ وهن انقلاب العصا حية، تلقفها الحبال والعصي على كثرتها، اليد، انفلاق البحر، انفجار الماء من الحجر، نتق الجبل، الطمس على الأموال، إنزال المن والسلوى، زوال لكنة موسى عليه السلام، السنين، نقص الثمرات، أو أن العدد تسعة يراد بها مجموع الآيات كلها (١٦)، لأن ذكر العدد لا يفيد الحصر عند بعض الأصوليين، ﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ وإذا أردت الاطمئنان يا محمد بهذا الخبر و إقامةِ الحجة على مشركي قومك المطالبين بالآيات المادية، اسأل بني إسرائيل المعاصرين لك، العالمين بما جاء في التوراة، وما تنزل على آبائهم وأسلافهم من العذاب، حينما جاء لهم رسول الله موسى عليه السلام يدعوهم إلى الله وحده، فستجد عندهم صحة ما أخبرناك به في القرآن، ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾ جرت مقامات حوارية كثيرة بين فرعون وموسى عليه السلام في القرآن الكريم، ومن تلك قول فرعون لموسى: لأظنك يا موسى مسحورا، أي قد وقع عليك سِحْرُسَاحِرٍ، فصرت مختلِطَ العقل، تهرفُ بالكلام غير السوي، أو مسحورا بمعنى الساحر كقوله تعالى: ﴿حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥]، أي حجابا ساترا، ودافع اتهام فرعون لموسى بالسحر تحاشيهِ الدخول في الإيمان، لإنكار الآيات أنها من عند الله، ولكن في الحقيقة لم تكن إلا آيات عظاما أنزلها رب السماوات والأرض، وقد استيقن بهذا الأمر فرعون، ولهذا قال له موسى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لقد تَيَقَّنْتَ يا فرعونُ أن هؤلاء الآيات البينات التسع لم يُنْزِلْهَا إلا رب السماوات والأرض، و إيقان موسى بعلم فرعون ناجم عن وحي من الله، أو وفرة الأدلة الكافية للإيمان، "هَؤُلاَءِ" اسم إشارة للعاقل، أُلْصِقَ هنا بغير العاقل، وهو استعمال مشهور كقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، ﴿بَصَائِرَ﴾ جَمْعُ بصيرة وهي ما بِهِ اتضاح الحق، فالآيات التسع البينة بصائر تُرْشِدُ الإنسانَ السَّوِيَّ إلى الإيمانِ بربه والخضوع للحق، لكن مع ذلك لا يزال فرعونُ معاندا مكابرا طامسا للحق، ﴿وَ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ الثُّبُورُ: الهلاكُ، أي: إني لأظُنُّك يا فرعونُ هالكا خاسرا إن لم تخضع للحق، كلام فيه إنذاروتهديد، جاء بعد عِلْمِ مُوسَى باقتراب هلاك فرعون وقومه بوحي من الله، فيكون الظن بمعنى العلم واليقين، أو باستقرائه - أي موسى- حال الأقوام المكذبة لرسلها بعدما جاءتهم البينات، وعِلْمِهِ باستنفَادِ فرعونَ أغْلَبَ الفُرَص الممكنة للإيمان، فتوقع خسرانَه وهلاكَهُ، وهنا يكون الظن بمعناه المعروف، الأدنى مرتبة بعد اليقين، ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ الاستفزاز: الحمل على الترحل، وهو استفعال من فز بمعنى بارح المكان، ويواصلُ فرعونُ ممارسة طغيانه وجبروته، بمحاولته إجلاء موسى ومن معه من أرض مصر، لخوفه من زوال سلطته و اندثار ملكه، والآية تسليةٌ و إيناسٌ للرسول ﷺ والمؤمنين؛ أي فكما أن المشركين حاولوا استفزازكم من الأرض، ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦)﴾ [الإسراء: ٧٦] فقدُ اُسْتُفِزَّكَلِيمُنَا والمؤمنون معه من قبل فرعون، وتعريضٌ للمشركين بأن عاقبة

مكرهم وعنادهم ومحاولتهم إخراج المؤمنين ستكون كمصير فرعون و أتباعه، وهذا المآل يخبرنا به تعالى بقوله: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ وعاقبةُ فرعون ومن معه جميعا بعد عتوهم في الأرض فسادا الغرقُ في اليَمِّ، وهذا بعد أن لَقَّنَهُمُ الله عن طريق نَبِيِّهِ موسى أبلغ المواعظ والإرشادات، و أيقظ عقولهم بمعجزاته الخارقة، ونبههم بعقوباته المتصاعدة، ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ بعد غرق فرعون وقومه لم يرجع بنو إسرائيل إلى أرض مصر على أصح الروايات والدراسات التاريخية، بل كانت وجهتهم إلى أرض الشام المباركة، ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ فإذا حان وعد الآخرة، أي: لحظة قيام الساعة، أتينا بكم إلينا لفيفا، لنحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون، واللفيف: الجماعات المختلطة من أصناف شتى، أي تأتوننا جميعا مختلطين، ثم نميز سعداءكم وأشقياءكم.

ثم يعود بنا السياق في آخر السورة إلى ذكر معجزة القرآن الكريم الخالدة وبيان خصائصها، كما بدأها أول مرة ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، إقناعًا للمشركين المعاندين أن الخوارق التي يودون وقوعها لن تحصل في الواقع، وإنما الآيات والدلائل والبراهين هي كامنة في القرآن الذي يتلوهُ عليكُم رسولُهُ، فذكر نزوله مرتين ووصفهما بلفظ مماثل، لكن يختلفان معنى، ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أنزلنا هذا القرآن على الرسول محمد بالحق، والمعنى: اصطفينا محمدا لينزل عليه القرآن بحق، والحق هنا يقابله الحكمة، أي لا اختيار صدفة وعشوائية، لأنه أهلٌ لهذه الوظيفة الشريفة، ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ والمعنى: نزل القرآنُ متضمنا الحق، الحق الذي يقابله الباطل، أي: شاملا لكل الحقائق والمناهج والتشريعات والأخلاقيات التي بها تقوم دنيا الناس وتُدار أحسنَ إِدَارَةٍ، وبها الفوز والنجاة يوم الميعاد، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ولم نرسلك يا محمد إلى العالمين بالقرآن الكريم إلا لِتُبَشِّرَ مؤمنَهم المُوَفِّي بدين ربه بالحياةِ الطيبةِ في الدنيا والنجاةِ من عذابِ اللهِ يومَ القيامة، وَتُنْذِرَ عاصيَهُم وكافرَهم بمكر الله و انتقامه في الدنيا وعذابِهِ الأشد والأبقى يومَ الحسَابِ، ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ "قُرْآنًا" منصوب على الحالية من الضمير المنصوب في "فَرَقْنَاهُ"، واسمُ القُرآن مشتق من القراءة؛ وهي التلاوة، ومعنى "فَرَقْنَاهُ" أي جعلناه فِرَقًا، أي مُفَرَّقًا مُنَجَّمًا غير مجتمع في دفعة واحدة، وعِلَّةُ تَفْرِيقِهِ قِرَاءَتُهُ على المتلقين بتؤدة وبطء ومهل، ليَسْهُلَ حفظُه، وتترسّخَ في القلب مفاهيمُه وحقائقُه الكبرى؛ لأن القرآنَ ثقيلٌ في مضامينِهِ ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]، وكذا ليُوَاكِبَ الأحداثَ والوقائعَ وَيُتَابِعَ تطوراتها ومآلاتها، ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ وتَوَلَّيْنَا إنزالَهُ عَلَيْكَ يا محمد عن طريق أمين الوحي جبريل عليه السلام، فآية "وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ..." أشارت إلى مسألة التفريق والتجزئة، و آيةُ "وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً" نوهت بمسألة الإنزال، وليس في الآيتين تَكْرَارٌ.

بعد بيان شيء من خصائص القرآن الكريم، والتطرق إلى أحقيته في النزول على النبي محمد ، والحق المبطن في كنفه، يقرع الله الإنسانية العاجزة عن الإتيان بمثله بقوله: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ قل لهم يا محمد: إن شئتم آمنوا به، وإن شئتم احتقاره وازدراءه وعدم الإيمان به فلكم أن تكفروا به، فإن آمنتم به فلوضوح الحق وقوة الحجة، فلا تَمُنُوا على الله بتصديقكم به، وإن كفرتم به فالحق حَقٌّ ولو عاندتم وكابرتم، ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ موقعُ "إِنَّ" فيها معنى فاء التفريع، والمعنى: سوياكم في الإيمان وعدمه " قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْلَا تُؤْمِنُوا" لأننا في غنى عن إيمانكم بإيمان من سبقكم، فهم أفضل منكم علما وأعلى شأنا، لأنهم آمنوا بالإنجيل كله، وصدقوا بحقيقة نزول الكتاب الخاتم -القرآن الكريم- على النبي أحمد الواردة فيه، فإذا هم سمعوا آياته المبَيَّنَات سقطوا على أذقانهم ساجدين لله سجودَ تعظيم وتسبيح، لإيقانهم بصدقِ رسله وتحقيق وعده، والخُرُورُ: السُّقُوطُ، والأذقانُ جمع ذِقنٍ؛ أي مجتمع اللحيين، وَذُكِرَ الذقنُ إشارة لتمكين وجوههم كلها من الأرض، واللام في "لِلْأَذْقَانِ" بمعنى (عَلَى) كما في قوله تعالى: ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات:١٠٣]، ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ وفي سجودهم يَقُولُونَ: "سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا"، ومعنى: "سبحان ربنا" ننزه ربنا عن إخلاف الوعد ونَصِفُهُ بكمالاته ونقدره تقديرا يليق بجلاله، لأنه صادق في وعده ومنجزٌ أمرهُ، والوعد: بشرى نزول القرآن الكريم رسالة خاتمة ومصدقة لما جاءت به الكتب السابقة، و"إِنْ" مخففة من الثقيلة، وبَطَلَ عمَلُها، لوقوع الناسخ "كَانَ" بعدها، فكأنه قال: "سُبْحَانَ ربنا كان وعدُ رَبِّنَا لمفْعُولًا"، ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ تكرير للجملة باختلاف الحال المقترنة، فأعيد الحال مرتين "الخُرُورُ" اهتماما بما رافقه من أمارات التضرع والإخبات، والمعنى: يسجدون وهم يبكون، والبكاء: بكاء فرح وشوق واستبشار، لوقوع ما انتظروه سنين طويلة، ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ ويزيدهم القرآن خشوعا مع خشوعهم، عند سماع آياته وتعلم قوانينه واستشعار عظمته، والخشوع: هو طمأنينة القلب وارتياحه بمعرفة المنعم.

٢١. الأمر بدعاء الله بأسمائه الحسنى، وتنزيهه عن الولد والشريك

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)﴾

سبب نزول آية "قُلُ ادْعُوا اللّهَ أَوِ..." ما رواه ابن عباس أنه سمع أبو جهل النبي صلى الله عليه وسلم يقول: يا الله يا رحمان. فقال أبو جهل: إنه ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلها آخر. أخرجه الكشاف و ابن

مردويه، ولعل المشركين توهموا بجهر النبي في صلاته ودعائه بأسماء مختلفة أنه يريد بذلك التطاول عليهم واستفزازهم، فأمر الله رسوله بابتغاء طريقة بين الجهر والسر لئلا يهيج عواطف الكفار والمشركين فتتصلب أفئدتم وَيَشْتَدَّ كفرُهم بالله، وقد قيل إن هذا في صلاة النافلة تكون بين الجهر والإسرار، وأمره بأن يصدع فيهم بحقيقة الذات الإلهية وينزهها عن الولد والشرك والأولياء، ليقطع دابر من توهم أن "الرَّحْمَانَ" اسم لذات غير الله، اتخذه ولدا أو شريكا، أو معينا.

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ "أيّ" اسم شرط في الأصل، وتفيد الشرطية لما تدخل عليها "مَا"، وفِعْلُهَا مجزوم: "تَدْعُوا"، وجوابها مستتر: والتقدير فلا حرج في دعائه بعدة أسماء، وأَمَّا جملة "فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى" فهي علة الجواب، وكأنه قال: فلا حرج لأن له أسماء مختلفة والمسمى واحد، والمعنى: قل لهم يا محمد ادعوا ربكم باسم "الله" أو "الرَّحْمَان"، فأَيُّمَا دعوتم به فلا حرج، لأن له أسماءً حسنى عديدة، والمسمى واحد والأسماء مختلفة، والشرك يكون في الذوات لا الأسماء، ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ ولا تُعْلِ صَوْتَكَ في صلاتك، ولا تُسِرَّ به، فالجهر مدعاةُ سَبِّ الكافرين اللهَ وكَلاَمَهُ، والإسرار مانع عن انتفاع المؤمنين بقراءتك، والمقصود من الصلاة في الآية: الصلاة التعبدية المعروفة، أو الدعاء ﴿وَ ابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ و اتخذ بين الجهر والمخافتة طريقًا وَسَطًا، ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وقل يا محمد: الحمد لله، والحمدُ خاصٌّ بالله تعالى لا يشاركه فيه أحد، لأنه معطي النعم التي يعجز غيرُهُ عن إسدائها، ثم أَعْقِبْ هذا الحمد بالأوصاف الثلاثة ﴿الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ الذي لم يجعل لنفسه ولدا ولم يحتج إليه، لأن الولدية من صفات المخلوقات، والله عز وجل متعال عن خلقه، متنزه عن خصائص الحوادث، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ مالك ما سواه وحدَهُ، لا يخاصمه فيه أحد، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ﴾ "مِنْ" في قوله: "من الذل" بمعنى لام التعليل أي لأنه ذليل، والمعنى: ولم يكن له معين أو وزير أو مشير أو ناصر لمذلة، فهو العزيز القاهر الذي لا يغالبه أحد، ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ واعتقد أن الله كبيرٌ في قدره وشأنه، عظيمٌ بكمالاته وصفاته العليا المطلقة، وَ"تَكْبِيرًا" مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ للتوكِيدِ، وتنوينه للتَّعْظِيمِ.

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة الإسراء وتليها سورة الكهف.

تفسير سورة الكهف

سورة الكهف من السُّور المكِّيَّة، نزلت جملةً واحدةً بعد سورة الغاشية وقبل سورة الشورى، وهي السُّورة الثامنة والسِّتُّون في ترتيب نزولِ السُّور، عدد آيِها مئةٌ وعشر آيات، سُمِّيت بسورة الكهف لبيان قصَّةِ أصحاب الكهف العجيبة فيها؛ والتي تعدُّ دليلاً حاسمًا ملموسًا على قدرة الله تعالى.

وقد تعرَّضت السُّورة لوصف القرآن الكريم، ثم الإشارة إلى ما في الأرض من دلائلَ واضحة تدل على قدرته تعالى، كما فَصَّلت السُّورة ثلاثَ قصص من رو ائع قصص القرآن وهي، قصَّة أصحاب الكهف وقصَّة نبي الله موسى عليه السلام مع الخضر "العبد الصالح" وقصَّة ذي القرنين. وتَخلَّلت هذه القصص أمثال ثلاثة و اقعيَّة تُظهِر أنَّ الحقَّ لا يرتبط بالسُّلطة والقوَّة؛ إنما بالإيمان، وهي: قصة صاحب الجنتين، ومثل الحياة الدُّنيا، وقصَّة إبليس اللَّعين، ثم اختتمت السُّورة ببيان عاقبة أعمال الكفَّار، والجزاء المعدِّ للمؤمنين في الدَّار الآخرة ثم التمثيل لسعة علم الله تعالى.

فالعنصر الغالب في هذه السورة هو القصص، أمَّا المحور الموضوعيُّ لها فيرمي إلى تصحيح العقيدة وتصحيح منهج النَّظر والفكر، وضبط القيم بميزان هذه العقيدة.

٢٢. إنزال القرآن بشيرا ونذيرا، والدنيا دار البوار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨)﴾

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يحمدُ الله سبحانه وتعالى نفسه مُعلِّما عباده كيف يحمدونه على نعمه الجليلة؛ والتي من بينها إنزاله الكتاب العزيز على رسوله عليه السلام وعلى سائر الخلق ليخرجهم به من الظُّلمات إلى النُّور، فهو ﴿الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ أنزله على عبده ولم يجعل فيه شيئا من العوج؛ فلا اختلال في اللفظ ولا تعارض في المعنى، فهو واضحٌ بيِّنٌ لا زيغَ فيه ولا عيبَ ولا ميلَ عن الحقّ؛ بل يهدي إلى الصِّراط المستقيم. ثم إنه تعالى بعدما نفى صفة الاعوجاج عن كتابه العزيز قال مؤكِّدًا ﴿قَيِّمًا﴾ أي؛ مستقيمًا، خاليًا من أدنى عوج عند الفحص والاختبار، فلا اختلاف فيه ولا تفاوت، وجملة (ولم يجعل له عوجا) معترضة بين لفظ "الكتاب" والحال منه وهو "قيِّمًا"، ففي الكلام تقديم وتأخير تقديره: (أنزل

على عبده الكتاب قيّمًا ولم يجعل له عوجًا)؛ أو مفعول لمحذوف تقديره: (بل جعله قيّمًا)، وقيل إنه بمعنى؛ قَيّمًا على سائر الكتب مُصَدِّقًا وشاهدًا بصِحَّتِها، أو قَيّمًا بمصالح العباد الدينيَّةِ والدُّنيويَّة ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ﴾ أي ليُخوّفكم الله من عذابٍ شديدٍ من عنده تعالى في الآخرة، كما أنَّ في ذلك إيماء بالتهديد للمشركين لما سيلقونه من القتل والأسر بأيدي المسلمين في الحياة الدُّنيا كذلك، وبالمقابل ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ فالمؤمنون الذين آمنوا بالقرآن وعملوا الأعمال الصَّالحة لهم البشرى بالجنَّة وما فيها من النَّعيم المقيم، وهذا الأجر الحسن الذي هو الجنة ﴿مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي؛ مقيمين فيه إلى الأبد بلا انقضاء ولا انتهاء.

﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ هذا تعليل آخر لإنزال الله تعالى الكتاب على عبده؛ فالله سبحانه وتعالى يحذِّر الكفَّار الذين نسبوا لله الولد من العذاب الأليم، وخَصَّ هؤلاء بالذكر مع دخولهم في الإنذار الأوَّل العامّ لجميع العصاة وكرَّر الإنذار؛ استعظامًا لكفرهم وللدِّلالة على أنَّ أكبر أنواع الكفر و أقبحها نسبة الولد إلى الله تعالى. فهذا الادِّعاء الشنيع ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِم ﴾ ليس لهم به من العلم أصلٌ، ولا لآبائهم -والمراد به أسلافهم الذين اتَّبعوهم في هذا الافتراء- علمٌ ثابت بهذا القول إنما هو نتاجُ الجهل والتقليد للآباء وما ذلك إلا من تسويلات الشيطان ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ عظمت تلك المقالة الشَّنيعة التي يتلفَّظون بها ويتجرَّؤون على النطق بها ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ فليس الذي يقولون إلا كذبًا وسفهًا وزورًا لا حقيقة له في الأصل.

ثم إنَّ الله سبحانه وتعالى يُسري عن نبيّه ﷺ ويواسيه في حزنه مخاطبا إياه ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ الباخع: قاتلٌ نفسَه، أي؛ فلعلَّك يا محمَّدُ قاتلٌ نفسَك ومهلكها همًّا وحزنًا على كفرهم وعدم إيمانهم بالقرآن، فما يستحقُّ هؤلاء أن تحزن ولا أن تأسف عليهم، والآثار جمع أثر بمعنى على أثر إعراضهم وتولّيهم عنك، وكأنَّ هذا إيماء منه تعالى إلى أنَّهم غير صائرين إلى الإيمان، فما عليك أيُّها الرَّسول إلا أن تهيَّأَ وتتحمَّل ما ستلقاه من عنادهم؛ لذلك قال: إن لم يؤمنوا؛ بصيغة المضارع المقتضية الحصول في المستقبل. والحديث بمعنى الخبر، وأطلق هنا على القرآن، كونه إخبارا من الله لرسوله.

والله تعالى يخبرنا كيف أنَّه جعل الدار الدنيا الزائلة دار اختبار قائلا: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾ فجميع ما على الأرض من زخارف ومتاع ومباهج ومفاتن وغيرها ليست إلا زينة لها ولأهلها ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ لنختبر الخلق في أعمالهم وننظر أيُّهم أحسن عملاً؛ فنجزي المحسن بالثواب والمسيء بالعقاب، وإن الآية تسلية للنبي ﷺ مفادها: لا تحزن ولا تغتمَّ فإنا سنهلكهم ونبيدهم إذا ما بطروا النِّعمة التي رزقها الله لهم، وهذا بعد الفناء المذكور بقوله: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ الصعيد:

التراب؛ والجرُز: الأرض التي قُطِع نباتها، بمعنى أنَّ ما على هذه الأرض من زينة ونعيم سنصَيّره حطامًا وركامًا حتى تصبح جرداء لا حياة فيها بعد أن كانت خضراء بهيجة.

٢٣. قصة أصحاب الكهف

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢)﴾

أبانَ الله تعالى الخبر اليقين عن قصَّة أصحاب الكهف؛ حيث كانت من العجائب التي أشارت إليها الكتب السَّابقة، وهذا بعدما ذكر الله ﷻ الأرضَ التي خلقها وما حَوته من مباهجَ ومفاتنَ ونِعَمٍ وغيرها، كيف أنها جميعا تعدّ زينة لها ولأهلها، وفيها من العجائب والإبداع ما يفوق القصص وغرائبها، قال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ هل ظننت أيُّها الرَّسول أنَّ قصَّة أصحاب الكهف على غرابتها هي أعجب آيات الله؟ كلا هي أقلُّ عجبًا من كلِّ الزينة الموجودة بالأرض، وعجائب الكون أبدع وأعظم وأغرب من هذه القصَّةِ؛ كما أنَّ العجب من القادر على إماتة الأحياء بعد حياتهم أعظم من عجب إنامة أهل الكهفِ، وهذا تعريض عن غفلة الذين طلبوا من النبيّ ﷺ بيان قصة أهل الكهف وما فيها من العجب؛ فقد سألوا عن عجيب وكفروا بما هو أعجب وهو فناء العالم؛ بأن كانوا يقولون: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[الجاثية: ٢٤]، والخطاب للرَّسول عليه السلام والمراد به قومه الذين سألوا عن قصَّة أهل الكهف وأهل الكتاب الذين أغروهم بالسؤال عنها. والكهْف هو الشّقُّ المتَّسِع الوسط في جبل؛ فإن لم يكن متَّسِعا فهو غار، وَالرَّقِيم: لوح حجري كتبت فيه أسماؤهم و أنسابهم وقيل: رقمت فيه قصتهم وأمرهم، وقيل: اسم الجبل أو الوادي الذي فيه كهفهم وقيل الكتاب الذي كتبوا فيه ما كانوا يدينون به من التَّوحيد ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ اذكر حين التجأ هؤلاء الفتية الذين فرُّوا بدينهم من قومهم لئلاَّ يفتنوهم عنه إلى كهف في جبل ليختفوا فيه، وهم فتية شباب على سنٍّ واحد أو هم متقاربون، أرادهم دقيانوس –ملك الروم- على الشِّرك، فأبَوا وهربوا خوفًا على إيمانهم، ودخلوا الكهف سائلين الله تعالى مبادرين بالابتهال إليه ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ ارزقنا يا رب من خزائن رحمتك مغفرةً ورزقًا وأمنًا من العدوِّ ونجاةً من الشِّركِ ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ وهيِّئ لنا من الأمر الذي نحن فيه طريقا نصير به راشدين مهتدين؛ فقد طلبوا رحمةً خاصَّة قصدوا بها الأمن على إيمانهم من الفتنة، كما سألوا الله أن يقدِّر لهم أحوال الثبات على الدِّين الحقِّ والنَّجاة، وقد استجاب الله لهم وعجَّلَ لهم حصولَ ما طلبوه ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ

عَدَدًا﴾ فأنزلنا عليهم نومًا ثقيلاً يحجبهم عن سماع أيّ شيء، سنين طويلة ذات عدد كثير ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ ثمَّ بعد مرور تلك السِّنين الطِّوال أيقظناهم من نومهم العميق؛ لنعلم أيُّ الفريقين المختلفين فيهم أدقُّ إحصاءً للمدَّةِ التي ناموها في الكهف، والمعنى: ليعلم الناس اضطرابهم في ضبط التواريخ ويُعلم تفريط كثيرٍ منهم في تحديد الحوادث وتاريخها. وقد قيل إنَّ المراد بالحزبين: أصحاب الكهف والقوم الذين بعثهم الله إليهم، فقد اختلفوا في المدَّة التي لبثوها في الكهف، وقيل: المراد بهما فريقان من أهل بلدهم اختلفت أقوالهم في مدَّة لبثهم بعد أن علموا انبعاثهم من نومهم.

٢٤. إيمان فتية الكهف بربهم واعتزالهم لقومهم

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا (١٦)﴾

بعدما ذكر الله سبحانه وتعالى مُجمل القصَّة جاء إلى بيانها تفصيلاً ﴿نحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ الآن يا محمَّدُ سنقصُّ ونُخبرك عن أمرهم العجيب على وجه الصدق دون زيادة أو نقصانٍ، وهذا معناه أن الأخبار التي كانت تتداول عنهم بين العرب لم تكن صحيحة ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ هؤلاء كانوا جماعة من الشُّبَّان آمنوا بالله؛ وشهدوا أنَّ الله واحدٌ أحدٌ؛ فزدناهم يقينًا بدينهم بالإصرار على العقيدة والإقبال على الله، وقوَّيناهم على قول الحقّ ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ قوَّينا عزمهم وألهمناهم الصَّبر واليقين حتى صارت قلوبهم ثابتةً راسخةً على الإيمان معتزَّةً به، واختاروه على الأهل والمال والوطن، والربط على القلب مستعار من ربط الأشياء لتثبيتها إلى تثبيت الإيمان وعدم التردد فيه ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فحين وقفوا أمام ملكهم الجبَّار قالوا بعزم بلا مبالاة: ربنا هو خالق السماوات والأرض لا ما تدعون إليه من عبادة الأصنام والأوثان ﴿لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ لسنا نرضى بعبادة غيره ولن نشرك بعبادته أحدا؛ فقد أقرُّوا بتوحيد الألوهية وتوحيد الربوبيَّة لله وحده ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ أي؛ لئن عبدنا غيره نكن قد تجاوزنا الصَّواب وحدنا عن الحقّ، و أفرطنا في الظُّلم والضَّلال. والشطَطُ: هو مجاوزة الحدّ والبُعد عن الحقّ؛ والمراد أن عبادتهم إلها غير الله هو إفراط في الكفر وقولٌ باطل وكذبٌ وبهتانٌ ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ هؤلاء أهل بلدنا يعبدون الأصنام من دون الله، وهذا إخبار على سبيل الإنكار ﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ هَلاَّ يأتون ببرهان ظاهر أو حُجَّة بينةٍ على عبادتهم الأصنام دونه تعالى؟ ففي هذا إشارة إلى أنَّ الدِّين لا يؤخذ إلا بدليل، والتَّقليد

فيه غير جائز﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله ونسب الشريك إليه ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ واذكروا أيُّها الفتية حين قرَّرتم الهروب من قومكم وما يعبدون من الأوثان، وصمَّمتم على الفرار بدينكم فاعتزلتموهم وفارقتموهم ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾ التجئوا إلى الكهف أيُّها الفتية وفارقوا قومكم جسدِيًّا كما فارقتموهم روحيًّا وأخلصوا العبادة في مكان خالٍ بعيدٍ عن أهل الشِّرك ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ يبسط ربُّكم عليكم رحمةً يستركم بها عن قومكم ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ ويسهِّل الله عليكم أسباب الرِّزق في هذا الكهف وما ترتفقون به وتنتفعون.

٢٥. رعاية الله لفتية الكهف وهم نيام

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨)﴾

وهنا ينتقل الله سبحانه وتعالى إلى وصف أهل الكهف في كهفهم، وما هيَّأ لهم في أمرهم من مرفقٍ جزاءَ اهتدائهم ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أصل كلمة تزاور: تتزاوز مضارع مشتق من الزَّوْر وهو الميل عن المكان. أي: وترى أيُّها المخاطب الشَّمس إذا طلعت تميل عن كهفهم جهة اليمين ﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أمَّا إذا غربت فإنَّها تقرِضُهم أي: تنصرف عنهم جهة الشمال وتبتعد؛ والمعنى أنَّ الشمس لا تصيبهم ولا تخترق أشعَّتها الكهف لا في شروقها ولا غروبها لئلاَّ تؤذيهم بحرِّها حمايةً لهم كرامةً من الله تعالى ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ وهم في متَّسع من الكهف وفي وسطه ينالهم روح الهواء الطيِّب؛ بمعنى لم يكونوا قريبين من فَم الكهف، فلا حرارة الشَّمس تؤذيهم ولا الهواء ينقطع عنهم ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ فذلك الصَّنيع ليس إلاَّ دليلا من دلائل قدرة الله تعالى وإعجازه وعنايته بأوليائه ومؤيِّدي دينِ الحقِّ ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ من يوفِّق الله إلى طريق الإيمان ويُيَسِّرْ له سبل الهداية، ويدله دلالة مؤدِّية إلى الحقِّ فهو المهتدي حقاً، الفائز بالحظِّ الأوفر في الدَّارين؛ وهذا ثناء على أصحاب الكهف وشهادة لهم بإصابة الحقِّ، أو هو تنبيه على أنَّ مثل هذه الآيات كثيرة؛ غير أنَّ السَّعيد من وفَّقه الله إلى الاهتداء والاستبصار بها، فالله تعالى هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ ومن يضلله الله لسوء عمله وسوء اختياره؛ بأن لم يوفقه للاهتداء بآياته فلن تجد له حليفًا ولا ناصرًا ولا معينًا يرشده إلى طرق الخير والصَّلاح في الدُّنيا والآخرة ولا هادي له؛ لأن التوفيق

والخِذْلان بيد الله تعالى ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ لو رأيتهم أيُّها النَّاظر لظننتهم أيقاظًا؛ لانفتاح أعينهم وهم نيام، فقد كانوا في حال تشبه حال اليقظة وتخالف حال النوم ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ ونقلبهم مرة جهة اليمين وأخرى جهة الشِّمال لئلاَّ تتعرَّض جلودهم للهواء، ولا تؤثِّر الأرض في أجسامهم، وذاك وضع عجيب يسَّره الله لهم بحكمته ليكونوا بحال اعتدال داخل الكهف فلا ينتاب البِلى أجسادهم، وتلك من آيات قدرة الله تعالى ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ الوصيد: فناء الكهف وقيل بابه أو مدخله، وقد كان كلبهم المرافق لهم الذي تبعهم بإلهام الله تعالى للحراسة، باسطًا ذراعيه بباب الكهف يحرس الكهف بسجِيَّة منه وطبيعة؛ وقد أصابه من النَّوم على تلك الحال ما أصاب الفتية، وهذا من فوائد صحبة الأخيار؛ أن يصيب المصاحِبَ لهم ما يصيبهم ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ لو نظرت إلى حالهم تلك قبل أن يبعثهم الله لأدبرت عنهم بالفرار والهرب، ولامتلأ قلبك منهم خوفا وفزعا؛ فالله تعالى ألقى عليهم مهابةً ووقارًا؛ حيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم وفزع منهم. وقيل إن الخوف منهم هنا ليس من ذواتهم؛ إذ ليس فيها ما يخالف خلق الله، ولا من كونهم أمواتًا، إنَّما الخوف من الاعتقاد أنَّهم قطَّاع طرقٍ أو لصوصٌ والرُّعْب من شرِّهم، فقد كانت الكهوف مخابئ لقطَّاع الطُّرق. واستمرَّ وضعهم كذلك إلى أن انتهى أجل لبثهم راقدين، وتحقَّقت فيهم حكمته تعالى البالغة ورحمته الواسعة؛ فقد أقيم فيهم الدَّليل الماديُّ الحسِّيُّ على قدرة الله تعالى على البعث والإعادة وعلى أنَّ يوم البعث آتٍ لا ريب فيه.

٢٦. بعث الله للفتية وتساؤلهم عن مدة مكثهم

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠)﴾

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ يخبرنا الله تعالى أنَّه كما زاد الفتية هدًى وإيمانًا، وكما أنامهم وحفظ أجسامهم من البِلى والفناء، وكما أبقاهم أحياء من غير أكل ولا شرب مدَّةً طويلةً من الزَّمان؛ كذلك بعثهم؛ أي؛ أحياهم بعد نومهم الطَّويل الذي يشبه الموتَ؛ ليعرفوا مدى قدرته وعجيب صنعه ويتبصَّرُوا في أمرهم ويتساءلوا فيما بينهم ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فقد سأل أحدهم لإحساسهم بطول نومهم: كم مكثتم في نومكم؟ فأجاب بعضهم قائلاً: في تقديرنا لبثنا يومًا كاملاً أو جزءًا من اليوم؛ لأنَّهم دخلوا الكهف في أوَّل النَّهار، واستيقظوا في آخره؛ لذلك استدركوا فقالوا:

أو بعض يوم، وأجاب البعض الآخر: ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ ربكم أعلم بأمركم وهو الأعلم بمقدار لبثكم، وهذا يُنبِئُ باستشعارهم كثرة نومهم، لِما رأوا من تغيُّر حالهم، أي: فالله أعلم منكم بأمركم و أنتم لا تعلمون ولا تستطيعون التَّقدير، وهذا أدب الإيمان اليقظ في الرَّدّ على جواب البعض الأول، كما أنَّه من كمال إيمانهم إذ فوَّضوا العلم لله تعالى. ثم تناقشوا فيما بينهم ورأوا أن لا طائل من السؤال عن مدَّة المكث، فقرَّرُوا البحث عن المهمّ من أمرهم وهو احتياجهم إلى الطَّعام والشَّراب، فقالوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ﴾ الوَرِق: الفضَّة. أي: أرسلوا أحدكم بالدراهم التي استصحبتموها معكم من منازلكم إلى المدينة، لينظر فيما تحتاجون إليه من طعامٍ ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ ليختر أجود الأطعمة و أنفعها وأطيبها و أيسرها سعرًا، فليأتكم بمقدار مناسب منه ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ وليكن لطيفًا حذرًا في خروجه ودخوله المدينة حتى لا يشعر بأمرنا أحد، ولا يخبر أحدًا من أهل المدينة بمكاننا ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ إنَّ أهل المدينة إن اطَّلَعوا عليكم وعَلموا بمكانكم قتلوكم رجما أو أجبروكم وأكرهوكم على العودة إلى دينهم من عبادة للأصنام والأوثان، عندها ﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ إن و افقتموهم على العودة إلى ملَّتهم فلا فلاح لكم أبدًا في الدُّنيا والآخرة.

٢٧. عثور الناس على الفتية وتنازعهم في شأنهم

﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (٢١) سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٢٢)﴾

انتقل الله تعالى إلى موضع العبرة في القصَّةِ، فآية أهل الكهف آيةُ تثبيتٍ وتقوية إيمان للقوم الذين عثروا عليهم من أهل زمانهم ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ وكما أنمناهم ثمَّ بعثناهم، أطلعنَا النَّاس على حالهم، وسَمَّى اطِّلاع النَّاس عليهم إعثارًا لأنَّ من غفل عن شيء ثمَّ عثرَ عليه عرفه بعد النَّظرِ إليه؛ كذلك كان حال أهل الكهف حيث عرفهم النَّاس بمجرَّدِ النَّظر إليهم، وقد أراد الله ذلك. والعثور على الشيء: الاطلاع على الشيء والظَّفر به بعد الطَّلب، وهذا معناه أنَّ الحديث عن أهل الكهف كان يتناقله أهل زمانهم؛ فيسَّرَ الله لهم العثور عليهم، وقد مات ذلك الحاكم الكافر الذي آذاهم في دينهم وجاء بعده حاكم مسلم، وعندما ذهب واحد منهم إلى السوق عرفوه من خلال العملة الفضية التي معه؛ إذ ما عاد الناس يتعاملون بها ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ ليدرك أولئك

الذين كانوا يكذِّبون بالبعث ويشكُّون في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى أنَّ وعد الله حقٌّ وصدقٌ وثابتٌ؛ وقد كان ذلك حين كان بعضهم يتنازع مع بعض في أمر القيامة بين مثبت لها ومنكر، مؤمن بها وكافر، فبَعْثُ أهل الكهف حجةٌ ودلالةٌ قاطعةٌ على إمكان البعث والنُّشور؛ فقد فرح الملك وشعبه بآية الله على البعث وزال أمر الخلاف في أمر يوم القيامة. وقيل إنَّ التنازع في أمرهم حصل بعد أن أَطْلعهم الله عليهم ثم قبض أرواحهم؛ حيث انقسم النَّاس في شأنهم إلى فريقين ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا﴾ قال الفريق الأول –قيل إنَّهم الكُفَّار منهم- نسدُّ عليهم باب كهفهم ونتَّخِذُ عليه بنيانًا لئلاَّ يدخل إليهم الناس وليكون عليهم عَلَمًا ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ جملة معترضة، أي؛ ربُّهم هو أعلم بشأنهم وبما يتعلق بأمر عقيدتهم وأسمائهم و أنسابهم ومدَّة لبثهم من الذين يتنازعون في أمرهم ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ وقال الفريق الثاني وهم المسلمون وملكهم؛ حيث تغلَّبوا على الفريق الأوَّل بالرَّأي والنفوذِ والقوةِ: لنتَّخِذنَّ حولهم معبدا يصلي فيه المسلمون، وقد بيّن الشيخ أطفيش أن ذكر بناء المسجد عليهم ليس فيه ما يبيح بناء المسجد على القبر؛ لأن كهفهم ليس قبرا، ولأن جدار المسجد سد باب الكهف، ولأنه تعالى ذكر بناء المسجد ولم يبين حكمه أنه جائز، و إنما حكى ما وقع، و أيضا فقد جاء في شرعنا ما يدل على النهي الصريح عن ذلك. فقد ثبت في الصحيح النَّهيِ عن البناء على القبور و اتِّخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجدَ، يقول الرسول ﷺ: (لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)[١٣]، وعلَّة النَّهي أنَّ ذلك من الغلوِّ الذي قد يؤدِّي إلى عبادةِ أصحابها.

بعد ذلك اختلف الناس في عددهم، وهم أهل الكتاب والمؤمنون زمنَ رسول الله ﷺ فقد سألوا الرَّسول عنهم فأخَّر الجواب إلى أن يوحى إليه﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾قال بعضهم إنَّ عددهم ثلاثة فتية والرابع منهم هو كلبهم ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ ويقول البعض إنَّ عددهم خمسةُ فتية والسَّابع كلبهم، وكلٌّ من الفريقين يقول قوله رجمًا بالغيب، أي؛ قولاً بلا علمٍ، بل هو مجرد ظنٍّ وتخمينٍ لا دليل عليه ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ ويقول آخرون إنَّ عددهم سبعة والثامن منهم كلبهم ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قل يا محمَّدُ: إنَّ ربِّي أعلم بعددهم، وما يعلم ذلك إلا قليل من خلقه، وكلُّ الذي ذكرتموه من أمر عددهم ليس إلا ظنًّا وتخمينًا، وهذا إرشاد منه تعالى إلى أنَّ الأفضلَ في مثل هذا المقام رَدُّ العلم إلى الله تعالى؛ إذ لا داعي للخوض في مثل ذلك بلا علم ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ لا تجادل أهل الكتاب في أمرهم وشأنهم من عددٍ ووصفٍ ومحلٍّ إلا جِدالاً ظاهرًا دون تعمُّقٍ في أمرهم، فقُصَّ عليهم ما أَوْحَى إليك ربُّك من أمرهم ولا تزد ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ ولا

[١٣] رواه البخاري من طريق أم المؤمنين عائشة، ك: المغازي، ب: مرض النبي صلى الله عليه وسلم، ر:٤٤٤١(١١/٦).

تسأل منهم أحدًا عن قصَّتهم ولا تسألهم سؤال مسترشد فقد أرشدك الله وأوحى إليك خَبَرَهُم وإنَّ في ذلك الكفاية. وعليه فلا يجوز مراجعةُ أهل الكتاب في أمر من العلمِ الديني إذ لا يُؤْمن مكرهم وجهلهم.

٢٨. الأمر بذكر الله ورد مدة المكث في الكهف إلى الله تعالى

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦)﴾

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ لا تقولنَّ يا محمَّد لأمر عزمت على فعله في المستقبل، إني سأفعل ذلك إلاَّ بأن تقْرِنَهُ بمشيئة الله تعالى، بأن تقول: إن شاء الله. قال ابن كثير: سبب نزول الآية أنَّ النبيَّﷺلما سئل عن قصة أصحاب الكهف قال: (غداً أجيبكم) فتأخر الوحي عنه خمسة عشر يوما[١٤] ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ واذكر مشيئة الله إذا تنبَّهْت لذلك بعد نسيانٍ، سواء طال الفصلُ أو قصُرَ لتبقى نفسك مستشعرة عظمة الله ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ وقل يا محمَّد لعلَّ الله يوفِّقُني لشيء آخر بدل المنسيّ أقرب خيرًا ومنفعةً، فإذا سُئلتَ عن أمر لا تعلمه فتوجَّه إلى الله واطلبْ منه التوفيق للرُّشد والصَّواب ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ أخبر الله تعالى نبيَّه عن مدَّةِ لبْثِ أهل الكهف في كهفهم، فقد أقاموا فيه مقدار ثلاث مئة سنة وتسع سنوات قمرية، وأكَّد الله تعالى إخباره بقوله ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ إذا سئلت عن مدَّة لبثهم وليس عندك علم بذلك فقل الله أعلم بمدَّة لبثهم على وجه اليقين ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الله عالمٌ بكلِّ شيء، وهو الذي يعلم ما غاب من شؤون السموات والأرض وما خفي من أحوال أهلها، فلا تتعجل بالإخبار عن شيءٍ ما لم يكن لديك دليلٌ عليه ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ لا أحد أبصرُ من الله تعالى ولا أسمعُ منه لكُلِّ موجودٍ، لا يخفى عليه من ذلك شيءٌ، يُدْرك الخفيَّات كما يدرك الجَليَّات من الأمور، وفي الآية دليل لمن قال بجواز التعجب من صفات الله الذاتية كالسمع والبصر والحياة والقدرة ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ ليس للنَّاس من دون الله من وَلِيٍّ يتولَّى أمورهم، ولا ناصرَ ولا معينَ لهم غير الله ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ ولا يُشارك في قضائِهِ أو في أمره أحدٌ من النَّاس؛ فلا شريك له ولا مشير ولا معاون.

الأمر بتلاوة القرآن الكريم والمصابرة على الذكر والصدع بالحق

﴿وَاتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (٢٧) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَلا تُطِعْ

[١٤] ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج٥، ص١٤٩.

مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَ اتَّبَعَ هَواهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (٢٨) وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَساءَتْ مُرْتَفَقاً (٢٩)﴾

بعدما ذكر الله تعالى قصَّة أصحاب الكهف العجيبة التي يجهلها الكثير من النَّاس والتي تُعدّ دليلاً حاسمًا على قدرة الله تعالى وأنَّ القرآن وحي من عند الله، أمر تعالى رسوله ببعض الأوامر ﴿وَ اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ﴾ اقرأ يا محمَّدُ ما أَنزلَ الله إليك من آيات الذكر الحكيم كما أنزلت، و اتَّبِع ما جاء فيه من الأوامر والنَّواهي ﴿لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ﴾ لا أحدَ قادر على تغيير أو تبديل كلام الله تعالى زيادةً ولا نقصًا ولا مُغَيِّرَ لأحكامه؛ فالآية أمر للنبيّ ﷺ بالبقاء على ما هو عليه وزيادة التمكُّن فيه، فلا يهمُّك مخالفة أهل الكتاب لك و إنكارهم لما جئت به من عند ربك ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾ الملتحدُ: هو الملجأ، أي؛ ولن تجد ملجأ ولا وليًّا ولا ناصرًا تلتجئ إليه من دون الكتاب والمقصود به القرآن أو من دون الله تعالى ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ﴾ واحبسْ نفسَك وثَبِّتْها مع المسلمين، وجالس الذين يذكرون الله تعالى ويحمدونه ويسبحونه ويسألونه صباحًا ومساءً، والغداة من الفجر إلى الزوال، والعشي بمعنى المساء، وهو ما بعد الزوال ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ يبتغون بدعائهم طاعته ورضاه. قيل إنها نزلت في أشراف قريش حين طلبوا من النبيّ ﷺ أن يطرد الفقراء والضعفاء من المسلمين؛ كبلالٍ وعمَّارٍ وصُهَيْب وخبَّاب و ابن مسعود، ويجالسهم وحدهم؛ فنهاهُ الله تعالى عن ذلك وأمرَه بالصَّبر وتثبيتِ نفسه بالجلوس مع هؤلاء المؤمنين المستضعفين. و أكَّدَ الأمرَ قائلاً ﴿وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ﴾ ولا تصرفْ بصَرَك عنهم إلى غيرهم من ذوي الغنى والشَّرَفِ والنُّفُوذ. والمراد من ذلك النَّهْيُ من احتقار تلك الطبقة لسوء حالهم وفقرهم، وقد قال رسول الله ﷺ لمَّا نزلت هذه الآية: (الحمد لله الذي جعل في أمَّتي من أُمِرْت أن أصبرَ نفسي معه)[١٥] ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ تطلب بذلك الشَّرف والفخر الموجود عند رؤساء قومك من الكفار. والكلام في الآية المراد منه التعريض بسفاهة عقول سادة المشركين حيث جعلوا كلَّ همِّهم الأمور والصُّور الظَّاهرة في النَّاس، وأهملوا الحقائق والمكارم النفسيَّة فيهم، فاستكبروا عن مجالسة ذوي الفضل والعقول الرَّاجحة والقلوب النيّرة ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا﴾ ولا تتَّبع كلام الذين طلبوا منك طرد ضعفاء المؤمنين من مجلسك؛ فقلوبهم في غفلة عن ذكر الله وقد شغلتهم الدُّنيا عن الدِّين والعبادة ﴿وَ اتَّبَعَ هَواهُ﴾ سار بأمر هواه وترك أمر الله ﴿وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ الفُرُط: الظلم والاعتداء أي؛ وكان أمره في جميع أعماله هلاكًا ودمارًا لا ينتفع به في الدُّنيا ولا الآخرة.

---

[١٥] رواه أبو داود من طريق من طريق أبي سعيد الخدري، ك: العلم، ب: القصاص ، ر:٣٦٦٨(٣/٣٦٢).

وبعدما أمر الله تعالى رسوله الكريم ألا يلتفت إلى قول أولئك الذين طلبوا منه طرد فقراء المؤمنين ليؤمنوا به، أمره أن يقول لهم ولغيرهم على طريق التهديد والوعيد ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ قل يا محمَّد لأولئك الغافلين إنَّ الحقَّ قد ظهروبان بتوضيح من الرَّحمن، و إنَّك مبلِّغه دون هوادة ﴿فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ إن شئتم فآمنوا بالحقِّ المذكور أو بالنبيِّ أو بالقرآن وإن شئتم فاكفروا، وإنَّ إيمانهم وكفرهم موكولٌ إلى أنفسهم؛ فالآية أمرٌ حقيقته وعيدٌ و إنذارٌ ﴿إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها﴾ إنا هيَّأنا للكافرين الذين أنفوا من قبول الحقِّ نارًا حاميةً شديدةً يحيط بهم سورها إحاطة السِّوار بالمعصم. والسُّرادِقُ: هو الفُسطاط، أي الخيمة، وهو لفظ فارسيٌّ معرَّبٌ، شبّه به ما يحيط بهم من لهب النَّارِ؛ إذ شُبِّهت النَّارُ بالدَّارِ، وشأن السُّرادق يكون في بيوت أهل التَّرف، فإثباته لدار العذاب استعارة تهكُّمِيَّةٌ ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ المُهْلُ: عكر الزيت، أو الشيء المذاب من المعادن كالنُّحاس والرَّصاص ونحوه. أي؛ وإن طلبوا الإنقاذ من شدَّة العطش أغثناهم بماء شديد الحرارة كالنُّحاس المذاب يشوي وجوههم من شدَّة حرِّه إذا قرُب منها ﴿بِئْسَ الشَّرابُ وَساءَتْ مُرْتَفَقاً﴾ ساء ذلك الشَّراب الذي يغاثون به وقَبُح، وما أسوأ جهنَّم منزلاً ومُتَّكأً ومقيلاً يرتفقون به. وإطلاق المرتفق الذي من شأنه أن يكون مكان استراحة على النَّار تهكُّمٌ.

٢٩. الجنة عقبى المؤمنين العاملين

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠) أُولئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُيُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَمِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ نِعْمَ الثَّوابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً (٣١)﴾

لمَّا ذكر الله تعالى حال الأشقياء من عباده أتبعه بحال السعداء يوم القيامة وما أعدَّه لهم من أجرٍ و افرٍ، وهذا جَرْيًا على عادة القرآن في إتباع الوعيد بالوعْدِ والترهيب بالترغيب ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ إنَّ الذين آمنوا وأخلصوا عملهم لله فإنَّ الله لن يضيع عملهم وأجرهم بل يزيده ويُنَمِّيه، فقد أعدَّ لهم من النَّعيم ﴿أُولئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ إنَّ هؤلاء لهم جنَّات إقامةٍ واستقرارٍ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ﴾ تجري من تحت غرفهم ومنازهم أنهارُ الجنَّة ﴿يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ يلبسون في الجنَّة من الحُليِّ أساور من ذهب ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ ويلبسون في الجنة ألوانا من الحرير، من سُنْدُسٍ وهوصنف من الثِّيابِ وهو ما رقَّ من الدِّيباج، واللَّفظ فارسيٌّ مُعرَّبٌ، وَمن إِسْتَبْرَقٍ ما غلظ منه، وهو لفظ روميٌّ معرَّبٌ، والجمع بين النَّوْعين دلالة على أنَّ فيها ما تشتهي الأنفس وتلذُّ الأعين، واختير اللَّون الأخضر لأنه أرفق بالأبصار، ومن ثَمَّ جعله

الله لون النَّبات والأشجار ﴿مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ﴾ ويتَّكِئون في الجنَّة على سررٍ من ذهبٍ مزدانةٍ بالسَّتائرِ الجميلةِ، وفي هذا دليل على منتهى الرَّاحة والنَّعيم ﴿نِعْمَ الثَّوابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً﴾ نعم جزاء المتَّقين وحسُنَت الجنَّةُ منزلاً ومقيلاً لأهلها.

٣٠. فضل الله على صاحب الجنتين وكفر انه بنعم الله تعالى

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَحَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَجَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً (٣٣) وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقالَ لِصاحِبِهِ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالاً وَأَعَزُّ نَفَراً (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً (٣٥) وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً (٣٦)﴾

لمَّا طلبَ المشركون من النبيِّ ﷺ طردَ الفقراء من المسلمين استهانةً بهم ونفورًا من مناظرهم واحتقارًا لشأنهم، أمره الله تعالى بملازمتهم وعدم الاستجابة لمطالبِ المشركين وأعقبَ ذلك بمَثل للغنيِّ الكافر والفقير المؤمنِ مُبَيِّنًا كيف أنَّ المال ليس سبيلَ الافتخار والقبولِ عند الله، ولا الفقر سبيلاً للذلِّ والهوانِ، كما أنَّ الحال قد ينقلب فيصبح الغنيُّ فقيرًا ويصير الفقير غنيًّا؛ لذا فالمفاخرةُ بطاعة الله وعبادته وحدَهُ ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ﴾ قدِّم أيُّها الرَّسول الكريم لأولئك الكفَّار الذين طلبوا منك طردَ فقراء المسلمين وضعفائهم الذين يسألون الله كلَّ وقتٍ من مجلسك، هذا المثلَ لِرَجُلين ﴿جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ﴾ رزقنا أحد هذين الرَّجُلين بستانين مثمرين بشتَّى أنواع العنب اللَّذيذ. فالرجلان المضروب بهما المثل أحدهما: كافرٌ مغترٌّ بدنياه، والثاني: مؤمن موحِّد لله ﴿وَحَفَفْناهُما بِنَخْلٍ﴾ وأحطنا الجنَّتينِ بسياج من النخيل ﴿وَجَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً﴾ وفي وسط هذين البستانين جعلنا زرعًا، فيحصل من ذلك قوتٌ عظيمٌ وبقولٌ متنوّعةٌ تناسب كلَّ وقت، لا يحتاج مالكها لغيرها ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً﴾ كِلَا البستانين أخرج أكله أي: ثمرهُ يانعًا طيِّبًا بالغَ الجودةِ، ولم تنقِصْ منه شيئًا في كلِّ عامٍ، أو لم تنقص شيئًا من شأنه أن يؤتى به أو شيئًا معهودًا في سائر البساتين ﴿وَفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً﴾ وجعلنا النَّهر يسير وسط هاتين الحديقتين، تتفرَّع منه جداول تسقي جميع الجوانب؛ ليدومَ شربهما وبهاؤهما ﴿وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ وكان لهذا الرَّجل الذي رزقناه هاتين الحديقتين أنواعٌ أخرى من المال غير هاتين الجنَّتين؛ أي النُّقود التي كان يجنيها من التِّجارة وتنمية ثمار الأرض؛ وقرأ الجمهور(ثُمُر) والثُّمُر- بضم الثاء والميم -: المالُ الكثيرُ المختلف من النَّقدين والأنعام والجنَّاتِ والمزارع، وقرأ حفص (ثَمَر) وهي الثمار التي تخرج من الأشجار ﴿فَقالَ لِصاحِبِهِ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾ فقال صاحب هاتين الجنَّتين لصاحبه الفقير مجادلاً إيَّاه ومفتخرًا عليه: أنا أغنى منك وأشرف ولي من الخدم والأنصار أكثر

منك؛ فالنَّفَرُ هنا بمعنى: الخدم والحشم والولد والأعوان الذين يدافعون عنه ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ ودخل حديقته وهو يطوف فيها مستعرضًا على صاحبه أنواع الثّمر والخيرات الموجودة فيها، وهو معجبٌ بنفسه مزهوٌّ بها. "ظالم لنفسه": مشركٌ مكذِّبٌ بالبعث بَطِرٌ بنعمة الله عليه ﴿قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً﴾ قال لا أعتقد أنَّ هذه الحديقة ستفنى يومًا ما، ولا يمكن أن تنتقِضَ ولا أن تضمحلَّ، وهذا اغترارٌ منه بغناه واغترارٌ بما لتلك الجنَّة من قوَّةٍ وثباتٍ للشَّجَرِ ﴿وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً﴾ ولا أعتقد أنَّ القيامةَ المعهودة عندك أيُّها المؤمن وعند غيرك حاصلةٌ. فقد أنكر فناء جنَّتِه؛ بل وفناءَ الدُّنيا والبعث ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً﴾ قال لصاحبه متهكِّمًا: أمَّا إن كان في ذلك فناءٌ للدُّنيا وبعثٌ ونشورٌ –فرضًا على سبيل التَّقدير كما تزعم- فإنَّ الله سيعطيني خيرًا من هاتين الحديقتين و أفضلَ؛ فعاقبتي وما ينتظرني هناك أعظم، وكما أعطاني في الدُّنيا فإنَّه سيكرمني في الآخرة؛ لكرامتي عنده ومكانتي لديه. إنَّه الغرور الذي يعتري أصحاب الغنى والجاه في الدُّنيا بأنَّ القِيَم التي يعاملهم بها النَّاس في دنياهم ستبقى محفوظةً لهم حتى في الملأ الأعلى!.

٣١. حوار بين الفقير التقي والغني المستكبر

﴿قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً (٣٨) وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالاً وَوَلَداً (٣٩) فَعَسى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً (٤١)﴾

هنا يأتي دور الرَّجل المؤمن الفقير الذي لا مال له ولا نفر، بيْدَ أنَّه معتزٌّ بما هو أغنى و أبقى، معتزٌّ بإيمانه وعقيدته، معتزٌّ بالله الذي خضعت له الرِّقاب، فهو يجيب صاحبه البَطِر المغرور ويذكِّره وينذِرُه عاقبةَ الكبر راجيًا عند ربّه ما هو خيرٌ من الجنَّتين والثَّمَر ﴿قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ﴾ قال الرَّجل الآخر لصاحبه المغترِّ بنفسه وبماله، وهو يجادله ويراجعه زاجرًا له وواعظًا ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ هل جحدت الله الذي خلق أصلك من ترابٍ ثم من منيٍّ ثم عدلك وصيَّرك إنسانًا سويًّا كاملَ الرجولة!؟. والغرض من الاستفهام هنا التَّوبيخ والتَّقريع فهو يذكره بمنشئه المهين من ماءٍ وطينٍ، ﴿لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً﴾ لكن أنا أؤمن بوجود خالقي ولا أتَّخذ له شريكًا، فهو المعبود وحده لا شريك له ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ ثم إنَّه يوجِّهُه إلى الأدب الواجب في حقّ المنعِم قائلاً: هلاَّ قلت عند دخول حديقتك وإعجابك بما فيها من خيراتٍ، هذا من فضل الله، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا قدرة لنا على طاعته إلا بتوفيقٍ منه ومعونةٍ؛ فإنَّ تلك الجنَّة

من مشيئة الله ولا قوة لك على إنشائها إلا بقدرة من الله، فاعترف بعجزك وبأن القدرة لله. ولهذا قال بعض السَّلف[١٦]: من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده، فليقل: ما شاءَ اللَّهُ، لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، عملاً بهذه الآية، وفي الحديث المرفوع الذي أخرجه الحافظ أبو يعلى عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (ما أنعم الله على عبد نعمةً من أهلٍ أو مالٍ أو ولدٍ فيقول: ما شاءَ اللَّهُ، لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، فيرى فيه آفة، دون الموت)[١٧]. يقال ذلك عند رؤية ما يعجبه في نفسه أو فيما لغيره دفعًا للعين ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالاً وَوَلَداً﴾ قال الرَّجل المؤمن للكافر، أمَّا إن كنت تراني أفقر منك وتعتز عليَّ بكثرة مالك وولدك في هذه الدُّنيا الفانية ﴿فَعَسى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ﴾ الجملة جواب الشرط، أي؛ فإنِّي أتوقَّع من صنع الله تعالى وإحسانه أن يقلب وضعك رأسًا على عقبٍ، فيرزقني جنَّةً أفضل من جنَّتك، ويسلبَ نعمتك التي ظننت أنَّها لا تبيد ولا تفنى بأن ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ﴾ يرسل عليها عذابًا من السَّماء كصواعق تجتاحها أو مطرٍ شديدٍ يقلع زرعها ويدمِّرها؛ فالحسبان اسم جمع حُسبانة وهي الصَّاعقة ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً﴾ فتتحوَّل بذلك إلى أرض ملساءَ جرداءَ لا نبات فيها ولا شجر، والزَّلَقُ: مصدر زلقت الرِجْل، إذا اضطربت وزلَّت على الأرض فلم تستقر، ووصفت الأرض بذلك للمبالغة ﴿أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً﴾ أو يختفي ماؤها ويغور في الأرض فيتلف كل ما فيها من نباتٍ وشجرٍ، حينها ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً﴾ لن تستطيع طلبه وإدراكه فضلاً عن ردِّه.

٣٢. هلاك الجنتين وتحسر وندم

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَما كانَ مُنْتَصِراً (٤٣) هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَخَيْرٌ عُقْباً (٤٤)﴾

هنا تنتهي محاورة الرَّجُل المؤمن للكافر المزهوّ بماله وولده، عندها تتحقَّقُ المفاجأة المدهشة بأن يقعَ رجاء الرَّجل المؤمن بزوال النَّعيم عن الرَّجل الكافر فيتحوَّل مشهد النَّماء والازدهار إلى مشهدِ الدَّمار والبَوار وينقلب موقف البطر والاستكبار إلى موقف النَّدم والاستغفار ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ وحلَّ الدَّمار وهلكت الجنَّة بالكليَّةِ واستولى الخراب على الزروع والثمار جميعها ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها﴾ فأصبح نادمًا يقلِّب يديه ويضرب إحداهما على الأخرى متحسِّرًا على الأموال التي أنفقها فيها وجهده الضَّائع عليها؛ فتَقْليبُ الكفَّيْن كناية عن التَّحسُّرِ والنَّدم؛ لأنَّ النَّادم يضرب بيمينه على شماله

---

[١٦] وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج١٥، ص٢٥٤.

[١٧] سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الأوسط، ج٤، ص٣٠١، رقم: ٤٢٦١

﴿وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها﴾ والجنَّة أمام ناظريه خرابٌ يبابٌ، مهشَّمةٌ محطَّمةٌ، سقوفها قد سقطت. فالعروش هي السُّقف أو هي ما يجعل للشَّجر يعمد عليه ﴿وَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً﴾ من شدَّة النَّدم يتمنَّى لو لم يشرك بالله أحدًا، ولم يكفر النِّعمة ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ولم يكن له جماعةٌ تنصره وتدفع عنه البلاء، فإنَّ الله القادر على نصره وحده ﴿وَما كانَ مُنْتَصِراً﴾ وما كان هو قادرًا على دفعه ممتنعًا بقوَّته عن انتقام الله تعالى، فلم ينفعه بذلك مالٌ ولا بنون لا عشيرةٌ ولا ولدٌ ﴿هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾: هنالك في ذلك المقام النُّصْرة لله وحده، فهو الوليُّ الحقُّ النَّاصر أولياءَه لا أحد غيره ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَخَيْرٌ عُقْباً﴾ فالله هو خيرٌ جزاءً لمن آمن به في الدُّنيا، كما أنَّه أفضل عاقبة في الدَّار الآخرة لمن اعتمد عليه ورجاه؛ فيعوِّضهم خيرًا ممَّا فقدوه في الدَّار الدُّنيا.

٣٣. مثل الحياة الدنيا

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦)﴾

في سياق ذكر أصحاب الكهف وتضحياتهم من أجل الإيمان والتوحيد، وذكر الأخوين صاحبي الجنة جاءت الآية ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ﴾ اذكر للناس عامة يا محمد وللمشركين خاصة ﴿مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي ما تشبهه الدنيا القريبة التي اغتروا بها.في سرعة انقضائها وزوال زينتها حالة كونها ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ بفعل نزول الماء على الأرض اختلط النبات ببعضه لشدة كثافته وازدهاره والتفاف بعضه ببعض ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ وقبله كلام محذوف تقديره؛ فصار "بعد مدة" هشيمًا؛ أي يابسًا مهشوما محَطمًا؛ تطيرّه الرياح وتفرقه في الهواء؛ فقد شُبهت الدنيا بحال النبات حين ييبس وتذروه الرياح؛ وشُبّهت الدنيا بالنبات لأن الناس لا يلحظون زوال الدنيا تدريجيًّا كملاحظتهم زوال النبات؛ ووجه الشبه هو التحول من حال حسنة إلى حال سيئة. ولقد عُرض هذا المشهد في ثلاث جمل قصيرة ليُلقيَ في النفس ظل الفناء ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ إن الله كامل القدرة على خلق الأشياء وأضدادها وترتيب أسباب الفناء على أسباب البقاء؛ وختمت الآية ببيان عموم قدرة الله وهو تذييل مناسب لما سبق من بيان عظيم قدرة الله في قصة أصحاب الكهف وصاحب الجنتين والمثل المضروب للدنيا.

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الإنسان في الدنيا يتزين بالمال والبنين ويفتخر بهما؛ كما فعل صاحب الجنتين؛ وقد قدَّم المال على الولد لأنه زينة حتى مع غياب الأولاد وهم مع الفقر ليسوا زينة مع

أنهم مُقدَّمون في السلامة على الأموال؛ والآية اعتراض أُريد بها موعظةُ المؤمنين بأن ما عليه الكفَّار من النِّعمِ والزينة آيلٌ إلى الزوال والفناء؛ ذلك كقول الله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتاعٌ قَلِيلٌ﴾ [آل عمرَان: ١٩٦] ولا يُنهى عن الزينة بهما لكن ليس لهما قيمة لذاتهما ولا يوزن بهما الإنسان في ميزان الخلود ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ الأعمال الصالحة باقية غير فانية لبقاء ثمرتها إلى أبد الآبدين؛ وهذا تأكيد موجَزٌ لزوال الدنيا ببقاء غيرها، والباقيات الصالحات هي كلُّ عمل خيرٍ يبقى للآخرة؛ وهي الأعمال الدائمة الثواب كالصلاة والصوم والحج وطلب العلم والتعليم ونحوها، «قالﷺ لجلسائه: (خذوا جُنَّتكم) قالوا: أحضر عدوٌّ؟ قال: (جُنَّتكم من النار قولوا: "سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم" فإنّهنّ المقدماتُ وهنّ المعقّباتُ، وهنّ الباقيات الصالحات) [١٨] »[١٩] ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ هي خير في حكم الله وفي الآخرة من المال والبنين وسائر منافع الدنيا ﴿ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أجرًا؛ وهي أفضل ما يأمله الإنسان عند الله من تحقُّقِ المنفعة له في الدنيا والآخرة وعدًا من صادق الوعد. هكذا فقد جاءت الآياتُ تصحيحا لقِيمٍ بميزان العقيدة؛ بتوجيهٍ من الله للرسول ﷺ أن يصبر نفسه مع الذين يدعون ربّهم يريدون وجهه، وبإيحاءِ قصة الجنتين، وبمَثَلِ الحياة الدنيا، ثمّ تقريرٍ لقيمٍ في الحياة وما بعدها.

٣٤. مشاهد من يوم القيامة

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (٤٨) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩)﴾

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ في يوم القيامة تُنقل الجبال من مواضعها بفعل زلزال عظيم بعد أن تكون كالصوف المفتول؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣] ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي ظاهرة عارية من كل ما كان يسترُها أو يستر بعضها من جبالٍ أو بحارٍ أو نباتٍ أو إنسٍ أو حيوانٍ؛ فقد قُلعت الجبالُ وسُجِّرت البحارُ وفني الإنسُ والحيوانُ والنباتُ ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ إلى موقف الحساب؛ وجاء بصيغة الماضي لتحَقُّقِ وقوعه ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ فلم نترك أحدا من الأولين والآخرين المنكرين البعثَ والمقرين به؛ ومنه الغدرُ: وهو تركُ المرءِ الوفاءَ بما وعد أو بما أُعتيدَ الوفاء به. وفي هذا المشهد

---

[١٨] رواه الحاكم في مستدركه من طريق أبي هريرة، كتاب الدعاء، باب: حديث رافع بن خديج، رقم:١٩٨٥: ج١، ص٧٢٥.

[١٩] امحمد اطفيش، تيسير التفسير، ج٨، ص٣٥٩

أهوال في الطبيعة من تحرّك الجبال العظيمة، و انكشافِ الأرض بحيثُ لا تخبّئُ شيئا، و انكشافِ القلوب فلا تخفى منها خافية وجمعِ البشرِ فلم يتخلف أحد ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ مصطفين لا يحجبُ أحدٌ منهم أحدًا ليحاسبهم الله ويأمر بحكمه فيهم؛ وعَرْضُ الشيء: يعني إحضارَه ليُرى حالُه وما يحتاجه، وهذه الحال تؤذن بإحضارهم جُناةً لا يخفى منهم أحدٌ إيقاعًا للرعبِ في قلوبهم؛ وقد أُضيف عرضُهم إلى "ربّكَ" خلافًا لـ"حشرناهم" تنبيها بشأن المضاف و انتصارِه وقد كذبوا بالبعث من قبلُ، وعرضهم على الله هنا مستعار لإحضارهم حيث يعلمون أنهم سيتلقون ما يأمر الله به في شأنهم.

﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ حضرتم إلى مكانٍ لا حكم فيه لغيرنا؛ بعد أن كنتم في غيابٍ بالموت؛ والخطابُ للكفار من جانب الله على وجه التقريع والتوبيخ؛ وهُم المعروضون؛ فـ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ جملة مَقُولٍ لِقَولٍ محذوف تقديره: وقيل لهم لقد جئتمونا ؛ وهي حالٌ لِـ"وَعُرِضُوا" ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ حُفاة عراة لا لِباس ولا مالَ معكم ولا ولد ولا ناصر ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ أنكم في وقتِ وعدكم الرسول ﷺ بالبعث كذَّبتم؛ والزعمُ: الاعتقاد الخاطئ أو الادعاء الكاذب، والموعد: وقت الوعد بالشيء أو مكانه؛ والمقصود به البعث بعد الموت؛ وبه يتبين لكم صدق وعد الرسول ﷺ. وتحوّلُ الكلام إلى الخطاب في ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ قد صوّر مشهدَ خطابِ الله المجرمين وجعله حيًّا كأنما هو حاضرٌ اللحظة وليس مستقبلاً يوم الحساب؛ ثمّ عاد إلى وصف ما يحدث يومئذٍ.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ جنس الكتاب ويحوي كلَّ كتبِ البشر لكلٍّ منهم كتابُه يتسلَّمُه من يمينه إن كان سعيدا ومن شماله إن كان شقيّا ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ فترى المجرمين العصاة خائفين ممّا سيحدثُ بعد أن رأوا ما في كتبهم من الجرائم و المعاصي؛ ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا﴾ أي "يا هلاكنا" وهي قولة المتحسّر الخائف المتوقّعِ أسوأ العواقب؛ وهم يكرّرونها ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ ما شأن هذا الكتاب لم يترك فعلة صغيرة ولا كبيرة من أفعالنا واعتقادنا وسرّنا وعلنِنا إلاّ وأحاط بها وعدّها وضبطها ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ وهي حالهم حين قالوا ﴿يَا وَيْلَتَنَا﴾ فهم وجدوا كلَّ ما عملوا من الذنوب دون نقصانٍ وقد أَبطَلَتْ كلَّ حسناتهم؛ فهو كتاب خارقٌ في دقّة العدّ وسرعة العرض ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ عطفا على ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ أنه كلُّه من أعمالهم ولم يُحمّلوا شيئا من غيرها؛ ولقد علموا في الدنيا ما نُهوا عنه وما أُمروا به؛ فالله لا يظلم أحدا بزيادة ما لم يعمل في كتابه، أو بتعذيبه بشيء لم يوجد فيه، ولا يُبطل عملاً صالحًا لأحد إلاّ من جاء بموجِبٍ لذلك كالشرك بالله أو الإصرار على الكبائر الموبقة؛ فيلقى كلٌّ عمله جزاءً من الله عادلاً.

٣٥. تحذير من إبليس وذريته وعدم استجابة الشركاء لمن عبدوهم

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠) مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (٥٢) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣)﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ واذكر إذ أمرنا الملائكة بالسجود لآدم؛ سجود تكريم وتعظيم لا سجود عبادة ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ سجد الملائكة كلُّهم باستثناء إبليس؛ إذ إنّه ليس من الملائكة بل من الجن؛ لكنه كان مغمورا فيهم؛ فكان الأمرُ الموجَّهُ إليهم أمرًا موجّهًا إليه بالتبع؛ فلم يمتثل حسدا وكبرياء، وعصى اللهَ ربَّه؛ "والفسق" الخروج عن الطاعة؛ ويؤيد انتفاءَ كونه من الملائكة أنه لو كان مَلَكًا لكان معصومًا كعصمة الملائكة؛ لكنه عصى.

وكما جاء التذكير بنهاية الدنيا في الآيات السابقة كان التذكير ببدايتها بخلق آدم. والآية تمهيدٌ للتذكير بعواقب اتباع الهوى والإعراض عن الصالحات، وأن إبليس هو أساس الضلال، وأن اتِباعه هو سبب خسارة الخاسرين يوم القيامة ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ خطاب للمشركين والعصاة المصرين من بني آدم؛ وهو سؤال استنكارلهم كيف يتخذون إبليس وليًّا وقد امتنع عن السجود لآدم؛ وهذا منه يقتضي عداوته له ولهم، وبعصيانه أمرَربّه لا يُرجى منه خير، "وَذُرِّيَّتَهُ" هم أولاده من نسله، و أتباعه من الجنّ والإنس؛ حملا على الحقيقة والمجاز أو على عموم المجاز ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ في الدّنيا والآخرة؛ والعدوُّ تُطلق على الجمع والمفرد، و اتّباعهُم إيّاهم من دون الله من كفران نعمه، وموالاة أعدائه ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ قبُحت عبادة إبليس وذريته بدلاً بعبادة الله فهم مخلوقون غيرُ خالقين ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي لم أجعلهم حاضرين يوم خلقتُ السموات والأرض، ولم أُشهد بعضَهم خلق بعضٍ فضلاً عن أن يكون أحدُهم لي ظهيرًا على ذلك؛ و "أنفسهم" أنفس بعضهم بقرينة استحالة شهادة المرءِ خلقَ نفسه ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ أي الشياطين الذين يضلّون الناس؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الْأَنْعَام: ١٢١] -وهم أسفه السفهاء- لم يكن الله -وهو أحكم الحاكمين- أن يتخذ منهم أعوانًا؛ و"العضُدُ" العظم بين الكتف والمرفق؛ ويطلق مجازا على المُعين؛ والمعين لا يعمل إلاّ على شاكلة عملِ من يُسدي له العون؛ فكيف يُضلّون الناس والله يُفيض عليهم من هدايته؛ وتعالى الله عن اتخاذ المعين؛ إنما قال ذلك مجاراة لأوهام المشركين تتبُّعا لها من أجل استئصالها؛ والآية تذييل على ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ في يوم القيامة يقول الله ﷻ للكفار بواسطة ملك أو بخلقٍ كلام يصلُ إليهم نادوا طلبًا للنصرة والشفاعة الذين ادّعيتم أنهم شركاء لي في الألوهية، أو بمعنى شفعاء يسعون في غير ما أراد الله؛ وهو دعوى دفع عذابه الموجه للمشركين وهذا الفعل من الإشراك ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ دعا المشركون شركاءهم ليغيثوهم فلم يستجيبوا لهم؛ فالقرآن أبطل ألوهية الشركاء بإبطال الانتفاع بها؛ فظهرت بذلك خيبة المشركين ويأسهم من النجاة. و"الموبق" موضع الهلاك؛ ويعني هنا النار، وقيل: هو واد في جهنم، أو "موبقا" حاجزا بين فريقين يفصل بينهما "المشركون وأصنامهم" في النار؛ وهي الفاصل؛ والمعبودون "عيسى عليه السلام والملائكة" الذين لم يرضوا بأن يُعبدوا من دون الله في الجنة ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَ اقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ المجرمون شاهدوا النار وعاينوها فعلموا أنهم داخلوها لا محالة؛ وهم في خوف شديد وهلع يتوقعون في كل لحظة دخولها؛ وما أشدّ العذابَ لمّا يكون حاضرا مع اليقين بدخوله ولم يجدوا ملجأً أو مصرفا عنها إلى غيرها لإحاطتها بهم من كلّ جانب؛ فدخلوها؛ وتقدير الكلام أنهم حاولوا التخلص منها ومجاوزتها فلم يجدوا عنها مَخْلَصًا.

٣٦. مهمة الرسل، وظلم المعرض لنفسه وسنة إهلاك القرى

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَ اتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا (٥٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (٥٩)﴾

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ ولقد بيّنّا ونوّعنا في هذا الكتاب المقروء للناس من كلّ جنسٍ مثلا ثابتًا؛ وفي هذه الآية عودة إلى تذكيرهم بما سبق في قوله: ﴿وَ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ﴾ [الْكَهْف: ٢٧]، و﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الْكَهْف: ٢٩] وعطفًا على ذكر مثل الرجلين ومثل الحياة الدنيا فكان التنبيه لهم في هذه الآية إلى الأمثال المضروبة في القرآن الذي أعرضوا عنه ولو أنهم صرفوا قلوبهم إليه ولم يجادلوا فيه لكان لهم فرصةً للنجاة ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ الإنسان طبيعته الجدال وهو أكثر الأشياء خصومة؛ والجدال في هذا السياق جدال

بالباطل وهو خلقٌ مذموم، وثمّةَ منه المحمود كما في قوله تعال: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَجاءَتْهُ الْبُشْرى يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: ٧٤- ٧٥]، ووُصف الإنسان بأنه شيء من بين كثير من الأشياء ليشعر أنه مخلوقٌ لله فيقلل من غروره وكبريائه، والجملة اعتراضية أُريد بها تقرير حقيقة جدل الإنسان في النفوس ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ ما منع الكفّار من الإيمان في عهد رسول اللهﷺ -بعد تصريف الأمثال لهم؛ وبعد الذي جاءهم من البيان والوحي على لسان الرسولﷺ - وما منعهم استغفارَربهم على ذنوبهم وامتناعِهم عن الإيمان إلاّ ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ إلاّ انتظار أن تجري عليهم سنة الله بإهلاك الأولين حين كذّبوا الرسل، أو ما منعهم إلاّ الذي منع الأولين من العناد والطغيان، أو يعاينوا العذاب وهو مواجهٌ لهم؛ وهذه شبهة تعلق بها الذين لم يؤمنوا على مرّ الرّسالات والأزمان.

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ وما نرسل الرسل إلى الأمم إلا مبشرين المؤمنين بالجنة ومنذرين الكفاروالعصاة بالنار، وليس للتصدّي للجدال الذي قُصد به الضلال ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ الذين كفروا يجادلون الرسولﷺ والمؤمنين بعد أن جاءوهم بالحقّ؛ جدالاً بسؤالهم إياهم -سؤال تعنُّت- أن يأتوهم ببعض المعجزات الخوارق؛ كتسيير الجبال، وتفجير العيون، وكالسؤال عن أصحاب الكهف والروح وذي القرنين؛ ذلك ليُزيلوا أو يقطعوا أو يُخفوا الحق الذي جات به الرسل؛ فلا يظهر؛ و"الإدحاض" الإزالة؛ و يطلق مجازا على الزلل ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا﴾ اتخذوا آيات القرآن عموما، والآيات التي أُنذروا فيها بالبعث والحساب والعذاب -حين تتلى عليهم- سخرية واستهزاء ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ سؤال استنكاريٌّ يعني؛ لا أحد أظلم ممّن وُعظ بآيات ربه البينات؛ فتعامى عنها واحتقرها و انصرف عنها إلى الباطل، ولم يتفكّر في عاقبة ما أسلَفه من أعمالٍ؛ ويراد بتركيب: ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ في القرآن -غالبا- العمل السيئ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ إنا وضعنا على قلوبهم بسبب فساد طباعهم وإعراضهم عن الحق أغطية تمنعهم من أن يفقهوا ما في القرآن؛ و"الفقه" الفهم؛ وهم قادرون على إزالتها بالإسلام فلم يفعلوا؛ وهذا تعليل لإعراضهم ونسيانهم، و"الوقر" ثِقَلُ السَّمع؛ وشُبِّه به عدم انتفاعهم بالقرآن ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ أي إن تدعُهُم إلى الإيمان أو إلى ما يُهتدى به لن يهتدوا ولن يدركوا الحجة ليعملوا بها؛ بسبب صممهم والأكنةِ التي على قلوبهم؛ لأن الرسولﷺ كان شديد الحرص على هدايتهم؛ ولقد قال له تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]؛ وبسبب استهزائهم بآيات الله قُدّرت عليهم الضلالة.

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ إن الله لا يعظمه ذنب؛ بل يغفر للناس إن تابوا ولم يُصروا؛ وقد عقّب على التهديد بالعذاب؛ بالترغيب في المغفرة بعد المتاب، وهو متصف بالرحمة مُنتفيةٌ عنه القسوة؛ ولقد قُدّمت المغفرة لأنها تخلية والرحمة تحلية. ووجّهَ الخطاب للرسولﷺ مفتَتَحًا بعنوان الربوبية له؛ تلميحا إلى أن المضمون تكريم له ﷺ على غرار قول اللهﷻ: ﴿وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الْأَنْفَال: ٣٣] ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ ولو يأخذ الله الناس بمعاصيهم في الدنيا لعجل لهم بالعذاب فيها؛ لكن رحمة بهم يمهلهم؛ -وكما جرت سنته- لا يهملهم ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ إن الله يؤخر العذاب للعصاة إلى أجل في الدنيا؛ ثم ينالهم فيها شيء منه، وفي يوم القيامة بالحساب والعقاب؛ ولن يجدوا عن ذلك الموعد ملجأ يلجؤون إليه قبل مجيء العذاب أو عند مجيئه ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ أهل القرى السابقة القريبة منكم؛ كقوم هود وصالح ولوط وشعيب حلّ بهم عذابُنا بشركهم وتكذيبهم الرسل، وجعلنا لإهلاكنا إياهم وقتا معيّنا؛ وهذا إنذار للمشركين بأن ليسوا أعزّ من هؤلاء وقد كذبوا أشرف الرسل، بألاَّ يغتروا بتأجيل العذاب فإن لهم موعدا لن يُخلفوه.

٣٧. رحلة موسى عليه السلام للقاء العبد الصالح

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤)﴾

قصة موسى مع العبد الصالح مثلٌ في الضدّ لقصة إبليس مع آدم، فهي تنويه بشأن العلم والهدى، وهي تلميح لأهل الكتاب بأنّ الأحرى بهم أن يخبروا الناس بقصص أنبيائهم، ولاسيما قصة سفر من أجل العلم لا من أجل السلطان وبسط الملك، وفيها عبرة للمشركين الذين افتخروا بالأموال على فقراء المسلمين بأن التواضع خير من الكبر؛ إذ لم يمنع كون موسى نبيا أن يطلب العلم من العبد الصالح بكل تواضع، ولقد طلبوا من الرسولﷺ أن يو افيهم بهذه القصة ليعترفوا به نبيا؛ فعلى الرغم من كون موسى نبيا إلاَّ أن علمه قصر عمّا أوتيه العبد الصالح من علم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾ هذه القصة معطوفة على ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ اذكر؛ -لأن في القصتين موعظة وذكرى- يوم قال موسى بن عمران كليم الله لفتاه وهو "يوشع بن نون" و"الفتى" الذّكر الشاب؛ ويطلق مجازا على الخادم؛ «وَهُوَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ شَجَّعَا بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى دُخُولِ أَرْضِ

كَنْعَانَ اللَّذَيْنِ ذَكَرَهُمَا الْقُرْآنُ فِي آيَةِ ﴿قالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبابَ فَإِذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غالِبُونَ﴾ [الْمَائِدَة: ٢٣]... وَكِتَابُ يُوشَعَ هُوَ أَوَّلُ كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ مُوسَى- عَلَيْهِ السَّلَامُ-»[٢٠] ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ لا أزال أواصل المسير-وهو في سفر- إلى أن أصل ملتقى بحري الروم وفارس وهما المحيط الهندي والبحر الأحمر ليلتقيان عند مضيق باب المندب[٢١]، أو أسيرَ زمنًا طويلاً دون أن أبلغه فأيأس منه وأرجع؛ و"الحُقُبُ" اسم للزّمن الطويل غير منحصر المقدار؛ مفرده: حِقْبَة؛ وحُذف السبب الذي من أجله كان سفر موسى إيجازا وتشويقا و«فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ: عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ وَيَعْلَى بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ عَن النبيّ صلّى الله عَلَيْهِ وَآله وسلّم: أَنَّ مُوسَى- عَلَيْهِ السَّلَامُ- قَامَ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا. فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ. فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: بَلَى عَبْدُنَا خَضِرٌ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ: فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ. »[٢٢] وقد جعل الله لموسى فقد حوتٍ أخذه معه في سفره علامة لمكان وجود العبد الصالح، وكلّف موسى عليه السلام يوشعَ بمراقبة الحوت ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ لما وصل موسى وفتاه إلى موضع التقاء البحرين نسيا أمر حوتهما؛ نسي يوشع أن يحمله عند مغادرتهما، ونسي موسى أن يُذكّره به ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ الحوت وقد عادت إليه الحياة وجمد له الماء اتخذ في البحر طريقا كالنفق؛ وهذه من آيات الله سبحانه وتعالى و"السَّرَبُ" النفق ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ موسى وفتاه لما غادرا من عند الصخرة في مجمع البحرين وهو واسع؛ طلب موسى الغداء من يوشع ، و"الغداء" هو ما يُؤكل في الغداة أي صباحا قبل الزوال أو بعده قبل العصر؛ وفي هذا الفعل من موسى تعليم للناس بالتزود للأسفار إلى جانب التوكل على الله سبحانه وتعالى ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ ولم يشعر بالتعب حتى جاوز الموضع المحدّد لأن الله سبحانه وتعالى ييسر الأسباب لامتثال أمره؛ ولأن موسى عليه السلام شعر بأنه تجاوز الموعد، اشتدّ تعبه من ذي قبل؛ لأنه بالأمل في الوصول رأى البعيد قريبا، وخيبته في الوصول أبعدت له القريب ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ قال يوشع لموسى أخبرني؛ أتذكر الصخرة التي أوينا إليها ونمتَ عندها؟ فإني نسيت عندها أمر الحوت الذي جُعل لي علامة ﴿وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ أسند الإنساء حصرا إلى الشيطان لأن هذا الأمر ليس من شأنه أن يُنسى؛ لِما أَوْلَى له من اهتمام وما فيه من عجب؛ ولأن الشيطان يسوؤه التقاء موسى والعبد الصالح لما في ذلك من علم ومنفعة؛ أي أنساني الشيطان أن أذكر لك قصته الغريبة ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ طريقا يُعجب منه؛ والجملة من كلام الله حكايةً عن الحوت ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ وهو قول موسى عليه السلام؛ أي فقدُنا الحوتَ هو ما كنا

---

[٢٠] التحرير والتنوير (١٥/ ٣٦٠)

[٢١] التفسير المنير للزحيلي (١٥/ ٢٨٧)

[٢٢] التحرير والتنوير (١٥/ ٣٦١)

نطلبه لأنه علامة على وجود مبتغانا "الرجل الصالح" ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ فرجعا يتبعان أثرهما في الطريق التي أتيا منها لئلاّ يضلاّ عن العودة إليها؛ و"القصص" مصدر من قصّ الأثر، حتى أتيا الصخرة.

٣٨. قبول العبد الصالح بمرافقة موسى عليه السلام له شريطة الصبر وعدم السؤال

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠)﴾

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ وجدا عند الصخرة عبدا من عباد الله ﷻ؛ وهو عند الجمهور الخضر عليه السلام، والرحمة التي أُوتي إياها هي الوحي والنبوة، ووصف بأنه عبد لله تشريفا له؛ وقد آتاه الله نعمة وفضلا كبيرا؛ وهو الكرامات التي جرت على يديه؛ و"الكرامات" جمع كرامة؛ و هي الأمر الخارق الذي يُظهره الله ﷻ على يدِ عبدٍ من عباده الصالحين، من غير ادعاء للنبوة أو مخالفة لشرع الله، وهي عند الأنبياء معجزة، ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ من الغيب؛ وهو العلم اللّدنّي؛ وهو العلم بطريق الوحي؛ ولا يُنال بمشقة طلبه؛ إنما هو هبة من الله يورثها المخلِصين المصطفين من عباده؛ "عند، ولدن"؛ كلتاهما لفظتان للمكان القريب وتطلقان مجازا لاختصاص المضاف إليه بموصوفهما؛ فالرحمة والعلم اللذان آتاهما الله العبد الصالح صدرا من قرب الانتساب لله وشرفه. وحريٌّ بمن قرأ هذه الآية أن يقول: «اللَّهُمَّ آتِنَا مِنْ عندِكَ رحمةً وعلِّمْنَا مِنْ لَدُنْكَ عِلْمًا»[٢٣]، «وَرُوِيَ أَنَّهُ لمّا سلَّمَ عَلَيْهِ وَهُوَ مُسَجًّى عَرَفَ أَنَّهُ مُوسَى فَجَلَسَ، وَقَالَ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ يَا نَبِيَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ مُوسَى وَمَا أَدْرَاكَ بِي وَمَنْ أَخْبَرَكَ؟ فَقَالَ: الذِي أَعْلَمَكَ بِي أَمَا يَكْفِيكَ أَنَّ التَّوْرَاةَ بِيَدِكَ، وَأَنَّ الوَحْيَ يَأتِيكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ رَبِّي أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ لِأَتَّبِعَكَ وَأَتَعَلَّمَ مِنْ عِنْدِكَ»،[٢٤] ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ استفهام من موسى فيه تلطّف؛ ولم يجزم له بأنه سيتبعه -مع أن الله هو من أرسله إليه- أدبا وخضوعا من طالب العلم لمن يأخذ منه العلم ﴿عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ شرط أن تعلمني ممّا عندك من العلم لأسترشد به في الحياة؛ وكان عند العبد الصالح علم لم يُعلّمه موسى، وعند موسى علم لم يُعلّمه العبد الصالح؛ ولا يمنع أن يكون أحدٌ أعلم من نبيّ أُرسل إليه ما لم يكن علما من مسائل الدين والتشريع؛ فالعالِم من يجمع علم النّاس إلى علمه ﴿

---

[٢٣]، [٧] امحمد اطفيش، تيسير التفسير، ج٨، ص ٣٨٨

قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ قال العبد الصالح لموسىعليه السلام لا تطيق صبرا على الأعمال التي أقوم بها؛ وتبدو غريبة تخالف المنطق لنبيٍّ بعثه الله لإقامة الأحكام على الظاهر؛ ومن ثمّ ستنكر علي أعمالي التي ظاهرها المنكروتضيق بها ذرعا؛ وهذا من أصول التعليم؛ أن يُعلِم المعلّمُ المتعلّمَ بطبيعة ما سيتلقاه منه؛ ولاسيما إن كان علمًا صعبًا ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُعَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ استفهام إنكاري مفادُه؛ أنت لا تستطيع الصبرعلى أمرٍظاهرُه المنكرو أنت لا تعلم باطنه الذي هو معروف؛ وقد أكد له عدم استطاعة الصبرمعه بـ"إنَّ" في الجملة الاسمية وبالنفي "لن"؛ ونفيُ استطاعة الصبرأوكد من نفي الصبر؛ و"الخُبْرُ" العلم بالشيء والمعرفة به؛ وكأن العلم الذي أوتيه العبد الصالح علم سياسة خاصة بأناس معينين لجلب المصلحة لهم ودرء المفسدة عنهم؛ خلافًا لرسالة الرسل فهي رحمة لكل الناس؛ ومن هنا المفارقة بين علمي العبد الصالح وموسىعليه السلام ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ وهذا القول من موسى للعبد الصالح أبلغ من القول "سأصبر" لأنه يدلّ على وجود صبرٍظاهرعلى صاحبه؛ والظاهر أن الصبرالمقصود هو الصبرعلى التعب والضجرمما لا يُتحمل إدراكه دون التنقيب عن العلة والسبب، ثمّ إنه وعده بألاّ يعصي له أمرا ممّا يأمره به؛ وقدم مشيئة الله على الصبروعلى الطاعة وعدم العصيان استعانة به، ولأن أفعال العباد إنما تكون بمشيئة الله، وتلميحًا إلى أنّ تعليم طالبِ العلم الذي له نصيب من العلم -إذ قد يتعارض بعضه مع ما يلقيه إليه أستاذه- أسهل من تعليم طالبٍ ساذج يُسلِّم بكل ما يُلقى إليه ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ بناء على وعد موسى العبد الصالح بالصبروطاعة الأوامر قبلَ صحبته، واشترط عليه ألاّ يبادره بالسؤال على فعلٍ استنكره منه في علمه حتى يبين له المغزى من الفعل من تلقاء نفسه.

٣٩. عدم صبرموسى عليه السلام على أعمال يعدها من المنكرات

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا(٧٨)﴾

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ فانطلق موسى والعبد الصالح؛ ويوشع تابع لموسى فلم يُفرد بالذكر إلى أن ركبا السفينة خرقها العبد الصالح؛ بحيث قلع منها لوحة بعد أن صارت في لجّة البحر

﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ وهذا السؤال من موسى لإنكاره على العبد الصالح فعله بالسفينة؛ أتريد إغراق السفينة بهذا "الخرق" الثّقْبُ والشّقّ؛ الذي يُفضي بركابها إلى الغرق؟ ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ فعلت منكرا عظيما غير مألوف ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ استفهام من العبد الصالح فيه تذكير لطيف وتقرير للشرط على موسى وتعريض له باللّوم على عدم الوفاء به ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ وهذا النهي من موسى نهيُ طلبٍ والتماسٍ من العبد الصالح ألاّ يؤاخذه بنسيانه وصيتَه بعدم السؤال على ما استنكر منه ؛ فكأنما تقرر عند العبد الصالح أنه سينسى، أو أنه تحقق عند موسى أنه استحق المؤاخذة؛ فلم يبرر مخالفته للشرط بالنسيان بل التمس العفو فور نسيانه، وفي طلب موسى دليل على عدم التكليف والمؤاخذة بالنسيان وقال له لا تزد على أمر اتباعي لك مشقة وصعوبة، وعاملني باليسر والرفق لا بالعسر ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ نزلا من السفينة بعد أن قبل عذره وعفا عنه ومشيا في الساحل ولقيا غلاما فقتله العبد الصالح فور اللقاء به ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ قال له موسى كيف قتلت نفسا بريئة من الجرائم و لم تبلغ سن التكليف، ولم تستحق القتل بقتلها نفسًا؟!، والصبي حتى وإن قَتَلَ لا يُقتل بقتله النفس و إنّما تجب الديّة على عاقلته أو على آمره بالقتل؛ لقد فعلتَ "منكرا" تنكره العقول والنفوس لا يمكن السكوت عنه؛ وهو أعظم من "إمرًا" في خرقِ السفينة إذ سلامة ركابها متوقعة، أمّا قتل النفس فهو فساد حاصل مباشرة ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ وجّه العبد الصالح لموسى العتابَ نفسَه عند نسيانه في الأولى وفيها كان قد وقّره ولم يواجهه بها؛ أما في الثانية فشدّد عليه العتاب وزاد "لكَ" واللام فيها هي "لام التبليغ" تدخل على ضميرٍ معلومٍ يعود للسامعِ قولاً أو فيما معناه؛ كـ"قلتُ لَهُ" قصد تبليغ الكلام إليه، وفي ذكر اللام تقوية لتبليغه، وفي هذه المرة لم يكن موسى ناسيا الوعد؛ بل أبى إلاّ أن يغير المنكر ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ وهو قول موسى إن اعترضت على فعلٍ منك بعد هذه المرة اترك صحبتي؛ فإنك معذور عندي؛ إذ أخبرتني بأني لا أستطيع معك صبرا، وقد خالفتك ثلاثاً.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ ﴾ أي موسى والعبد الصالح انطلقا حتى وصلا إلى قرية وطلبا من أهلها الطعام ضيافةً؛ وكانوا ناسا لِئاما؛ فامتنعوا عن ضيافتهم؛ و"الإباء" أشد الامتناع وفي الآية دليل على إباحة طلب الطعام لعابر السبيل ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ وجدا جدارا مائلا يوشك أن يسقط؛ "ينقضّ" يسقط بسرعة فعدّل العبد الصالح ميله بعمود فقال له موسى لو اتخذت على إقامة الجدار أجرة نستجلب بها الطعام؛ وفي هذا إنكار منه على العبد الصالح بأن قام بعمل دون أجرة رغم احتياجه إليها، وتلميح له بأن هذا من الفضول الذي لا يعنيه ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾

حينها قال العبد الصالح لموسى: هذا وقت افتراقنا باعتراضك الثالث عليَّ؛ عملا بقولك: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾، سأخبرك –كما وعدتُ- بحكمة تصرفاتي الثلاثة التي استنكرت علي فعلها؛ و"التأويل" ردّ الشيء إلى مآله.

نموذج من أسئلة المسابقات السابقة

حتى يتعرف المشارك على طبيعة وطريقة أسئلة المسابقة، فيما يلي نموذج لبعض أسئلة المسابقات السابقة:

١- قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ تضمنت الآيتان علاجا لوسوسة الشيطان هو:

أ	ذكر الله والاعتصام به وطلب الحماية منه لأنه العليم به وبنزغه.
ب	عدم التمادي مع الوسواس حتى لا يتمكن في القلب.
ج	جميع ما ذكر صحيح.

٢- قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

ما الفرق بين الاستماع والإنصات؟

أ	الاستماع محاولة السماع للقراءة بتفريغ قوة السمع للصوت، والإنصات رد كل شاغل عن السماع وعدم الاشتغال بغيره.
ب	الاستماع رد كل شاغل عن السماع وعدم الاشتغال بغيره ، والإنصات محاولة السماع للقراءة بتفريغ قوة السمع للصوت
ج	لا يوجد فرق بينهما، وقد جاء طلب الإنصات تأكيدا لطلب الاستماع

٣- قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (الْأَنْفَالُ) هي:

أ	الغنائم من الحرب.
ب	ما يتقرب به المسلم إلى الله من النوافل.
ج	قوافل التجارة.

٤- قال تعالى: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ كره فريق من المؤمنين الخروج للقتال ببدر بسبب:

أ	عدم استعدادهم للقتال، حيث كانت نيتهم الأولى هي التعرض لعير قريش وليس القتال.
ب	للخوف من العدو حيث كان عدد المسلمين قليلا.
ج	أ و ب صحيحتان .

٥- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ (الطَّائِفَتَيْنِ) هما:

أ	المسلمين والمشركين.
ب	العير المقبلة من الشام وما تحمله من أموال وبضائع، وقتال النفير المقبل من مكة والنصرة عليهم.
ج	المسلمين واليهود.

٦- قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ معنى الاستدراج الوارد في كلمة (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ):

أ	سيرسل الله لهم الآيات والأوبئة والمصائب مما يجعلهم يقنطون من رحمة الله تعالى، فيأخذهم بغتة من حيث لا يشعرون.
ب	سيبسط الله لهم من الرخاء والنعماء ما يجعلهم ينسونه ويستبعدون عقابه، فيأتيهم بأسه من حيث لم يسبق لهم به علم.
ج	سيرسل الله تعالى إليهم السراء والضراء مما يجعلهم ينسونه ويقنطون من رحمته، فيأخذهم العذاب بغتة من حيث لا يشعرون.

٧- قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ورد في تفسير (كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا):

أ	كأنك تتعمد إخفاءها على قومك رغم علمك بها من خلال الوحي.
ب	كأنك صاحب معرفة بها وبحث في شأنها ومهتم بها.
ج	كأنك على اطلاع بإمارات قيام الساعة ولكن تخفيها على قومك للاستعداد للامتحان الدنيوي.

٨- قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ مشيئة الله هنا تعني:

أ	إيمان الإنسان أو كفره بيد الله وحده، ولا اختيار للإنسان فيه مطلقا.
ب	يمكن للإنسان أن يتحول إلى غير دينه بنفسه واختياره المطلق دون أن تكون للمشيئة الإلهية أي تدخل في هذا الجانب.
ج	التأدب مع الله سبحانه وتعالى الذي جعل كل شيء بيديه، حتى إيمانهم الذي تمكنوا فيه، فلو شاء الله خذلانهم بالكفر ما منعه مانع.

٩- قالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ "لخاسرون" كانوا يقصدون بها:

أ	التحذير من اتباع شعيب عليه السلام بوقوع الهلاك والخسارة والمتمثلة في أضرار تحصل لهم في الدنيا من جراء غضب آلهتهم عليهم كما يظنون؛ لأن الظاهر أنهم لا يعتقدون البعث.
ب	التحذير من خسارة ما يجنونه من الأموال نتيجة تطفيف المكيال والميزان وغش الناس.
ج	أ و ب صحيحتان.

١٠- قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ في هذه الآية الكريمة يحذر الله المؤمنين من بلاء يصيب:

أ	المسيء بظلمه ومخالفته لأمر الله تعالى.
ب	غير المسيء لسكوته عن المخالفين وعدم إنكاره المسيء مع القدرة على ذلك.
ج	"أ" و "ب" .

١١- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى .....، وكان ذلك في .....

أ	(الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى اليهود، وكان ذلك في المدينة المنورة.
ب	(الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى كفار قريش، وكان ذلك في مكة المكرمة.
ج	(الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى كفار قريش، وكان ذلك في المدينة المنورة.

١٢- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ المكر هو .....، وتفسير مكر الله سبحانه وتعالى هو .....

أ	المكر هو محاولة إيقاع الضرر خفية، ومكر الله سبحانه وتعالى هنا هو إلهام نبيه صلى الله عليه وسلم بالدفاع عن نفسه بمخادعة الكفار ورد مكرهم عليهم.
ب	المكر هو محاولة إيقاع الضرر بالقوة، ومكر الله سبحانه وتعالى هنا هو رد مكر الكافرين عليهم بإرسال ملائكته لنصرة النبي صلى الله عليه وسلم.
ج	المكر هو محاولة إيقاع الضرر خفية، ومكر الله سبحانه وتعالى هنا هو حفظ الله لرسوله وإفشال مكر الكافرين حيث أنجاه الله منهم وحفظه وردد مكرهم عليهم.